الجوانب العقدية والقيم الحوارية في مجادلات الخليل عليه السلام نماذج تطبيقية*

إعداد

د. خالد إبراهيم أحمد حسب الله**

ملخص البحث

يأتي عدم تحمل الأمة الإسلامية لعقيدتها تحملا رشيدا على رأس العوامل التي أدت إلى تأخرنا وتراجع دورنا الحضاري، ولكي تنهض الأمة من جديد وتلحق بركب الحضارة والتقدم، لابد من ترشيد تحملها للعقيدة الإسلامية، ولن يتم ذلك إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم واستلهام منهجه في تقرير قضايا العقيدة، وعدم الاقتصار في تحمل هذه العقيدة على التصورات والأطروحات التي قدمتها منظومة علم الكلام الاسلامى، والتي كان لها دور بارز في الدخول بهذه العقيدة في متاهات جدلية عقيمة أضعفت من فاعلية هذه العقيدة لدى معتنقيها.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم قد استخدم في منهجه في تقرير قضايا العقيدة طرقا متعددة وأساليب متنوعة، من بينها القصة والمثل والجدال والحوار وتفنيد دعوى الخصوم إلى غير ذلك.. وهذا البحث يعنى ببيان الجوانب العقدية والقيم الإيمانية والآداب الحوارية التي يمكن استلهامها من نماذج حوارية متعددة لسيدنا إبراهيم عليه السلام مع

* أجيز للنشر ٢٠٠٨/١/٨م.
** أستاذ مساعد بكلية القانون– جامعة الإمارات العربية المتحدة.

النمرود ومع أبيه ومع قومه، لتكون نبراسا لنا في تحمل هذه العقيدة وعونا على استلهام روح القرآن في كيفية تعاطيها والتعامل معها والعيش في ظلالها.

مُقَدِّمَة:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.. وبعد:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الخلاف واقعا بين الناس في مختلف الأعصار والأمصار، وهو سنة الله في خلقه، فهم مختلفون في ألسنتهم وألوانهم وطباعهم، وأرزاقهم وقوتهم وضعفهم، ومعارفهم ومدركاتهم وعقولهم، وكل ذلك آية من آيات الله العلى القدير في خلقه. وهذا الاختلاف الظاهري دال على الاختلاف في الآراء والاتجاهات والأفكار والتصورات، مصداق ذلك قول ربنا جل في علاه (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)هود:١١٨-١١٩، والمعنى كما يقول صاحب تفسير المنار : يعنى خلقوا مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم ومشاعرهم، وما يتبع ذلك من إراداتهم واختياراتهم في أعمالهم، ومن ذلك الإيمان والطاعة والمعصية.

إذن الخلاف فطرى وطبيعي بين البشر، وأمتنا كسائر الأمم، ومجتمعاتنا كسائر المجتمعات البشرية تتنوع ضمنها الاتجاهات وتتعدد الانتماءات دينيا وقوميا وسياسيا ومذهبيا. ولكن كيف ذلك والمسلمون يعتمدون في فهم أمور دينهم وقضايا عقيدتهم وأحكام معاملاتهم على مصدرين أساسين هما الكتاب والسنة؟

نعم، المنبع الذي يستقي منه المسلمون واحد ولكن وسيلة الفهم وأداة المعرفة في هذين المصدرين هي إعمال العقل واستخدام الفكر، وما دامت العقول متفاوتة فالأفهام والأفكار الناتجة عن هذه العقول لا شك مختلفة، مما يفتح باب الاجتهاد ويفسح المجال أمام تعدد الآراء واختلاف الاستنتاجات.من أجل ذلك تنوعت المدارس الفكرية والمذاهب

الفقهية في الأمة الإسلامية. ففي مجال العقائد ظهرت فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة والأشاعرة والسلفية، وفي المجال الفقهي تعددت المذاهب الفقهية وتنوعت ضمن التوجهات المختلفة لعلماء الأمة، فهذه هي المذاهب الأربعة للأئمة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، وغيرها من المذاهب الفقهية الموجودة على الساحة الإسلامية.

فبذور التعددية المذهبية قد غرست مبكرا في البيئة الفكرية للأمة الإسلامية، بيد أن التنوع الفكري والمذهبي لم يكن ملازما للفرقة والخلاف، بل كان على الأقل في مراحله الأولى ميدانا لتلاقح الأفكار وإثراء الفكر والفقه الإسلاميين.

فلا خوف إذا من الاختلاف والتنوع المذهبي والفكري فهو مفيد للحياة. وديننا الإسلامي العظيم ربى أتباعه على أن الخلاف الفكري مقولة تفتح كل مجالات التحاور والتواصل لا الصدام والخصام، أو الصراع و العداء، وأن هذا الدور هو جوهر حركة الفكر والإنسان في هذا الوجود.. وأن التحاور معناه: أن نضع حدا للمواجهات والمنافسة البغيضة المذمومة. وجاء الإسلام من خلال القرآن ليكون دين الحوار الذي يطلق للعقل أن يفكر ويحاور الآخرين على أساس الحجة والإقناع والبرهان في ظل التنوع والتعايش، ولقد استطاع سلفنا الصالح والمسلمون الأوائل أن ينفتحوا على العالم من خلال ممارسة قواعد الحوار التي علمهم إياها القرآن الكريم.

لكن مع مرور الوقت ومرور الأمة بفترات الضعف ومراحل الانهزامية أصبح تعدد الانتماءات المذهبية والفكرية مدعاة للتنافر والتحزب والتفرق، ومشكلتنا الآن أن كل اتجاه أو انتماء يشعر بالقلق من الآخر في محيطه مما يدفع كل طرف للحذر من الآخر والاستعداد لمواجهته، والعمل على إضعافه، مما يحول بيننا وبين التعاون الجاد المخلص بل ويوجه طاقات الأمة نحو الهدم بدلا من البناء، والتدمير بدلا من التعمير.

إن أذهاننا مشغولة بمشكلاتنا الداخلية، وانتماءاتنا المذهبية، وإن الجزء الأكبر من إمكانياتنا تستنزفه تلك المعارك، وبدلا من أن يكون الاختلاف الفكري والتنوع المذهبي مفيدا لحياتنا، ومثمرا لأمتنا تحول إلى نزاعات وعداوات، وصراع وصدامات،وتحزب وانشقاقات. وبالتالي ينبغي التركيز على التنافس الإيجابي والتسابق نحو الإنجازات الخيرة بدلا من الجدل العقيم، والصراع المرير.

وبذلك نسهم في أن نتعايش حضاريا ونتسامى خلقيا، وهنا تبرز أهمية الحوار ودور رجال الفكر في قضية صنع وحدة الأمة الإسلامية وبعدها عن التنازع والصدام إذا اعترفنا ببعضنا واحترم كل واحد منا الآخر وأقر بشراكته ودوره، حينئذ يمكننا العمل معا لتجاوز حالة التخلف العميق، والانطلاق نحو أفق الحضارة الواسع.

إن المسافة بيننا وبين ركب الحضارة والتقدم بعيدة شاسعة، ونحتاج إلى بذل أقصى الجهود وتفعيل كل الطاقات والقدرات حتى نقطع شوطا من ذلك الطريق الطويل، خاصة وأن أعداءنا يتربصون بنا، ويفرحون بخلافاتنا وانقساماتنا التي تضعفنا وتقويهم. والفقرة الأخيرة تلفت نظرنا إلى الوجه الآخر للأزمة التي تعيشها أمتنا على الصعيد الخارجي، بسبب هؤلاء الأعداء الذين يثيرون الشبهات ضد كتابنا،ونبينا،وعقيدتنا،وأحكام شريعتنا، بحسن نية تارة،وعن سوء نية تارة أخرى، وعن عمد تارة وبجهل تارة أخرى،حتى وصل الأمر ببعض هؤلاء الخصوم إلى الدعوة إلى معاداة الدين الإسلامي والقضاء على الحضارة الإسلامية،التي تمثل العدو الأخضر للحضارة الغربية، بعد انهيار العدو الأحمر ممثلا في الشيوعية. ويروج لذلك أصحاب نظرية صدام الحضارات وصراع الثقافات،الذين لايتصورون إمكانية التعايش السلمي بين الحضارات،ولا التلاقح الطبيعي بين الثقافات.

وحين نفكر اليوم في الخلاص من هذا المأزق الخطير- على الصعيدين الداخلي والخارجي – لا بد أن نفكر أولا في تعريف هذه الأجيال برسالة الإسلام التي قامت على

الحوار، ولا يتسنى لنا ذلك إلا من خلال الوقوف على الإستراتيجية القرآنية في الحوار، وكيف تجسدت من خلال النماذج الحوارية المتنوعة التي قدمها لنا القرآن الكريم، خصوصا منها حوارات الأنبياء مع أقوامهم.

لذلك تبدو العودة إلى القرآن ملحة كلما عادت مسألة الحوار إلى الطرح والنقاش.

ومن هنا تتجلى أهمية هذا البحث الذي يمكننا من التعرف على الحوار وأهميته،وخلفيته العقدية، وآدابه وأخلاقياته، من خلال طرف من مجادلات الخليل عليه السلام ونماذج من مناظراته في القرآن الكريم. أضف إلى ذلك أن استلهام منهج القرآن في تقرير قضايا العقيدة وبيان القيم الإيمانية يمثل ملمحا من ملامح التجديد في المنظومة الكلامية التي ابتعد أربابها – في الغالب الأعم – عن المنهج القرآني بقدر اعتمادهم على المنهج العقلي، ومن هنا فان الرجوع في دراساتنا العقدية إلى المنهج القرآني يعد ضرورة لاغنى عنها على اعتبار أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للعقيدة الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أن حوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام متنوعة ومتعددة، مابين حوار مع الله تعالى وحوار مع الملائكة وحوار مع النمرود وحوار مع أبيه وحوار مع ولده وحوار مع قومه.. الخ. ومراعاة لمقتضيات النشر في مجلة الشريعة والقانون فقد اقتصرت على دراسة نماذج من هذه الحوارات، معتمدا في تناولها على المنهج الوصفي التحليلي الذي يساعدنا في الكشف عن أهم ماتضمنته هذه النماذج من جوانب عقدية وما انطوت عليه من قيم إيمانية وآداب حوارية.

وقد تضمن البحث مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

أما المقدمة فبينت فيها أهمية الموضوع وخطة السير فيه.

والمبحث الأول بعنوان: مصطلحات ودلالات.

والمبحث الثاني بعنوان : الجوانب العقدية والقيم الحوارية في محاججة أبى الأنبياء للنمرود.

والمبحث الثالث بعنوان: الجوانب العقدية والقيم الحوارية في حوار الخليل مع أبيه.

والمبحث الرابع بعنوان: الجوانب العقدية والقيم الحوارية في مجادلة إبراهيم لقومه.

وتضمنت الخاتمة أهم نتائج البحث.

المبحث الأول
مصطلحات ودلالات

في هذا المبحث نقف وقفة بين يدي بحثنا نطل من خلالها إطلالة على أهم المفردات التي حملها عنوانه، لنكشف عن مضامينها، ونلقي الضوء على معانيها ودلالاتها. ليسهل على القارئ التعرف على المراد بالعقيدة والقيمة والحوار والمجادلة، وبعد ذلك نذكر لمحة تاريخية موجزة نتعرف من خلالها على أبعاد شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي يدور البحث حول مجادلاته وحواراته في القرآن الكريم.

أ- معنى العقيدة في اللغة والاصطلاح:

كلمة عقيدة مشتقة من (عقد) والعين والقاف والدال- كما يقول ابن فارس[1]- أصل واحد يدل على شَدٍّ و شِدَّةٍ وثوق.. ومن ذلك عقد البناء.. وعقدت الحبل أعقده عقدا وقد انعقد وتلك هي العقدة.. وعاقدته مثل عاهدته وهو العقد، والجمع عقود. قال الله تعالى (يا أيها الذين أمنوا أوفوا بالعقود) المائدة:١.. وعقد قلبه على كذا فلا ينزع عنه. واعتقد الشيء : صَلُبَ

(١) معجم مقاييس اللغة، تحقيق/ عبد السلام هارون جـ٤، ص٨٦-٨٧، القاهرة ط مكتبة الخانجي ١٩٨١م.

ويبدو أن هذه اللفظة استخدمت في مدلولات حسية ثم نقلت إلى مدلولات معنوية. يقول الراغب الأصفهاني في معنى عقد: العقد الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما فيقال: عاقدته وعقدته وتعاقدنا وعقدت يمينه.. ومنه قيل لفلان عقيدة، وقيل للقلادة عقدٌ[٢].

فكلمة عقيدة من حيث الاشتقاق اللغوي تدل على معنى عام وهو ما يعقده الإنسان من التصميم والعزم، فكأن العقيدة هي العهد المشدود والعروة الوثقى، وذلك لاستقرارها ورسوخها في الأعماق. ويمكننا توضيح ذلك بالقول بأننا (نعتقد بوجود أشياء كثيرة من ذوات وصفات.. ونجد قلوبنا مطمئنة بما نعتقد به ليس فيها أدنى شك، كاعتقادنا بوجود ذواتنا وصفاتنا، وكاعتقادنا بوجود أشياء كثيرة من حولنا في الأرض والسماء، ولو جاءنا الناس كلهم يحاولون تشكيكنا فيما نعتقد به لم يؤثر بنا أي أثر.

ذلك لأن علمنا بهذه الأشياء تحول من ساحة الإدراك الحسي إلى خزانة العلم والمعرفة في عقولنا. ثم بمرور الزمن وتوارد الشواهد والأدلة التي تصدق علمنا، يتغلغل علمنا هذا في خزائن علومنا ومعارفنا إلى أعمق المراكز وأثبتها في داخلنا، وعند ذلك يكون علما راسخ الأسس ثابت البنيان متين القواعد. ومتى استقر فينا العلم هذا الاستقرار الراسخ نرى أنه أصبح يوجه كثيرا من تصرفاتنا وأفعالنا، ويحرك كثيرا من عواطفنا دون شعور ظاهري منا.. ومتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حدّ أصبح يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا حمل اسم عقيدة)[٣].

(٢) المفردات في غريب القرآن، تحقيق/ محمد سيد كيلاني ص٣٤١، بيروت ط دار المعرفة.
(٣) د.عبد الرحمن حسن الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٣١، دمشق ط دار القلم، ١٩٩٤م.

فالعقيدة إذن ما رسخ في العقل أو انعقد عليه القلب وصدق به، وأصبح يقينا عنده لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك، وهي بهذا المعنى اللغوي العام تعني ما يدين به المرء وينعقد عليه فؤاده من الإيمان بحقيقة معينة إيمانا قطعيا لا يقبل الزعزعة أو الشك.

وتختلف هذه العقيدة بحسب ما يعتقده الإنسان ويؤمن به، ومن هنا قيل إن عقيدة الإنسان هي (مذهبه أي هي ما يؤمن به ويراه عن اقتناع قلبي أكيد.. وقد تكون هذه العقيدة دينية يؤمن معتقدها بأفكار وآراء وتصورات معينة تتصل بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله كما تتصل بالحياة الدنيا والحياة الآخرة، وقد تكون عقيدة سياسية أو اقتصادية.. وقد تكون هذه العقيدة مبنية على العقل والمنطق وقد تكون مبنية على الخرافة والوهم.. وقد تكون متفقة مع جوهر الدين وقد تكون مناقضة له".[٤]

ومن ثم فإن العقيدة بالمعنى اللغوي العام قد تكون صادقة وقد تكون عقيدة باطلة فاسدة؛ لأن معنى اعتقدت كذا يعني: جزمت به في قلبي، فهو حكم الذهن الجازم، فإن طابق الواقع فصحيح، وإن خالف الواقع ففاسد، فاعتقادنا أن الله: إله واحد صحيح، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل، لأنه مخالف للواقع..ووجه ارتباط معنى العقيدة بالاشتقاق اللغوي الذي اشتقت منه الكلمة ظاهر؛ لأن هذا الذي حكم في قلبه على شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لا ينفلت منه.[٥]

أما العقيدة في الاصطلاح الإسلامي فهي: مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالعقل والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره جازما بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها يصح أو يكون أبدا، وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به وقدرته عليه ولقائه بعد موته... إلخ.

(٤) د. عبد الغني عبود، العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة، ص١٨، القاهرة ط دار الفكر العربي ١٩٧٦.

(٥) الشيخ محمد بن صالح العثيمين، شرح العقيدة الواسطية، ص٣٧، الرياض،ط دار الثريا ٢٠٠٠م.

أو هي كما يقول الشيخ شلتوت: الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولا وقبل كل شيء إيمانا لا يرقى إليه شك، ولا تؤثر فيه شبهة، ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضحة على تقريرها، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها، وهي أول ما دعا إليه الرسول ﷺ.[٦]

ب- القيمة:

القيمة واحدة القيم، وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء، يقول ابن فارس: قومت الشيء تقويماً وأصل القيمة الواو، وأصله أنك تقيم هذا مكان ذاك. وبلغنا أن أهل مكة يقولون استقمت المتاع، أي قومته[٧]. ويشير صاحب معجم متن اللغة إلى أن قوم الشيء: ثقفه، جعله يستقيم ويعتدل.. والسلعة: قدر ثمنها وسعره.. وإقامة الشيء: وفاه حقه.. وتقاوموا الشيء بينهم: قدروه في الثمن[٨] وهذا هو المدلول المادي لهذه الكلمة الذي يعني أنها: خاصية تجعل الأشياء مرغوبا فيها.. فالقيمة الاستعمالية لسلعة ما هي المنفعة الناتجة عن استعمالها. أما القيمة التبادلية فهي مقابلة سلعة بسلعة أخرى أو بالنقد.[٩]

ولهذا فقد اصطبغت كلمة "القيمة" في استعمالها الجاري بيننا بصفة اقتصادية، فأصبحت القيم عندنا مرتبطة، بمسائل البيع والشراء والتبادل التجاري.. الخ.

ولكننا مع ذلك كثيرا ما نتحدث عن قيمة هذا الفعل الأخلاقي، أو قيمة هذا العمل الفني، كما أننا كثيرا ما نستعمل هذا اللفظ في الأحكام التي نصدرها على الجماعات والأفراد، وبالتالي لا يقتصر مدلول هذه اللفظة على الجانب المادي فقط وليس هناك قيم اقتصادية فحسب، بل هناك قيم أخلاقية وقيم جمالية وقيم منطقية وقيم معرفية كذلك ومن

---

(٦) الإمام/محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص٩-١٠، القاهرة، ط دار الشروق ١٩٨٣م.
(٧) معجم مقاييس اللغة، جـ٥، ص٤٣.
(٨) الشيخ/أحمد رضا، جـ٤، ص٦٨٤، بيروت ط دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠م.
(٩) الأساتذة: يوسف كرم، مراد وهبة، يوسف شلاله،المعجم الفلسفي ص١٣٣. القاهرة، ط مكتبة يوليو

هنا فإن قيمة الشيء لا تنحصر في قيمته المادية فقط، حيث إن القيمة" تطلق على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات اقتصادية، أو سيكولوجية، أو اجتماعية، أو أخلاقية، أو جمالية.. وقيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوبا ومرغوبا فيه، ويطلق لفظ القيمة من الناحية الموضوعية على ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقا للتقدير كثيرا أو قليلا.. وقد تدخل قيمة الشيء في مقولة الكم فتدل على ثمن الشيء.. تقول : قيمة السلعة وقيمة العمل.

أو تدخل في مقولة الكيف فتدل على نسبة ذلك الشيء إلى الصورة الغائية لجنسه، تقول: قيمة الأسلوب، وقيمة الصداقة، وقيمة العلم".(١٠)

وهذا ما نقصده من قولنا: قيم حوارية، بمعنى أننا نتساءل عن أهم القيم والآداب التي اشتملت عليها حوارات الخليل عليه السلام في قصصه القرآني.

جـ- الحوار:

تعارف الناس فيما بينهم على أنواع من التخاطب الإنساني كالحوار والمناظرة والجدال بغرض التعارف، وتفهم وجهة نظر الآخرين وتبادل الرؤى والأفكار، ومن هنا أخذت أساليب الحوار مظاهر وألوانا مختلفة.

ولقد وردت لكلمة الحوار في معاجمنا اللغوية عدة معان، فهي مشتقة من "حور" والحاء والواو والراء – كما يقول ابن فارس(١١)– ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دورا. فأما الأول فالحور: شدة بياض العين في شدة سوادها.. ويقال : حورت الثياب أي بيضتها، ويقال لأصحاب عيسى عليه السلام: الحواريون لأنهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها.. وأما الرجوع فيقال: حار إذا رجع،

---

(١٠) د. جميل صليبا/ المعجم الفلسفي جـ٢، ص٢١٢-٢١٤، بيروت ط دار الكتاب اللبناني، ١٩٧١م.
(١١) معجم مقاييس اللغة جـ٢، ص١١٥-١١٧.

قال الله تعالى﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ الانشقاق: ١٤. والعرب تقول: الباطل في حور أي رجع ونقص، وكل نقص ورجوع حور.. والحور: مصدر حار حوراً رجع.. تقول: كلمته فما رجع إلى حواراً وحواراً ومحورة وحويراً. والأصل الثالث المحور: الخشبة التي تدور فيها المحالة.

ومن معاني كلمة "الحور" أيضا: القعر والعمق ومنه قولهم: بعيد الحور للعاقل.. وحاوره حواراً ومحاورة ومَحُورَة ومَحْوَرَة فتحاورا: راجعه في الكلام فتراجعا وتجاوبا. والاسم الحورَ والحوير والحويرة والحوار.. والمحاورة مراجعة النطق(١٢).

ومن معاني هذه الكلمة أخيرا: التردد إما بالذات وإما بالفكر.. وحار الماء في الغدير: تردد فيه، وحار في أمره، تحير، والقوم في حوار: في تردد إلى نقصان.. والمحاورة والحوار: المرادة في الكلام، ومنه التحاور، قال الله تعالى ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ المجادلة: ١(١٣)

وتشير هذه المعاني اللغوية لكلمة الحوار أن هذه الكلمة تدل على مفاهيم أصيلة في التراث الثقافي العربي الإسلامي، وأن للحوار في تراثنا الفكري واللغوي مكانة عالية ودرجة سامية تكسوها مسحة حضارية راقية تؤكدها النقاط التالية:

١- الأصل في الحوار في الثقافة العربية الإسلامية هو المراجعة في الكلام، وهو التجاوب، بما يقتضي ذلك من رحابة الصدر وسماحة النفس، ورجاحة العقل، وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيف والتجاوب والتفاعل، والتعامل المتحضر الراقي مع الأفكار والآراء جميعا. وبهذا المعنى يتأكد لدينا – بما لا يرقى إليه الشك – أن الحوار أصل من

(١٢) الشيخ/ أحمد رضا، معجم متن اللغة، ج٢، ١٩٠-١٩٣.
(١٣) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص١٣٤-١٣٥.

الأصول الثابتة للحضارة العربية الإسلامية ينبع من رسالة الإسلام وهديـــه، ومن طبيعة ثقافته وجوهر حضارته.

٢- اقتران الحوار بالعقل يؤكد أيضا على معنى سام في سياق تحديد مدلول اللفظ، ذلك الحوار العاقل هو الذي يقوم على أساس راسخ، ويعتمد وسيلة ســليمة، ويهدف إلى غاية نبيلة.

٣- ارتباط الحوار بمعنى الرجوع عن الشيء وإلى الشيء يثبت فـــي الــضمير الإنساني فضيلة الاعتراف بالخطأ، ويركز على قيمة عظمى من قـــيم الحيـــاة الإنسانية وهي القبول بمبدأ المراجعة بالمفهوم الحضاري الواسع الذي يتجاوز الرجوع عن الخطأ إلى مراجعة الموقف برمته، إذا اقتضت لـــوازم الحقيقـــة وشروطها هذه المراجعة.[١٤]

٤- والحوار أيضا كلمة تستوعب كل أنواع وأساليب التخاطب سواء كانت منبعثة من خلاف بين المتحاورين أو عن غير خلاف، لأنها إنما تعنـــي المجاوبـــة والمراجعة في المسألة موضوع التخاطب، وهو وليد تفاهم وتعاطف وتجاوب كالصداقة.. وبهذا يصبح للحوار معنى حضاري بعيد عن الصراع، إذ الحوار كلمة تتسع لكل معاني التخاطب والسؤال والجواب[١٥].

٥- غاية الحوار توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم، لا الاقتصار على عـــرض الأفكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيح للمعاني وإغناء للمفاهيم يفـــضيان إلى تقدم الفكر.[١٦]

(١٤) راجع هذه النقاط في: د. عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش،ص١٣، القاهرة ط دار الشروق ١٩٩٨م.
(١٥) عبد الله علي العليان، حوار الحضارات، ص٩، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م.
(١٦) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، جـــ١، ص٥٠١.

هذا عن المعاني اللغوية ودلالاتها لكلمة الحوار، أما معناها الاصطلاحي فقد عرفها بعضهم بقوله: الحوار أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر، عن طريق السؤال والجواب بشرط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معين، وقد يصلان إلى نتيجة، وقد لا يقتنع أحدهما الآخر، ولكن السامع يأخذ العبرة ويكون لنفسه موقفا.(١٧)

ورغم أن كلمة الحوار لم ترد في القرآن الكريم إلا في ثلاثة مواضع، اثنان منها في سورة الكهف(١٨) في معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين وحواره مع صاحبه الفقير، وجاء الثالث في سورة المجادلة.(١٩) في قصة المرأة التي أتت إلى النبي ﷺ شاكية زوجها الذي ظاهر منها. أقول على الرغم من ذلك إلا أن القرآن الكريم مليء بمختلف ألوان الحوار، خاصة الحوارات التي يقف الأنبياء والمرسلون طرفا فيها، وأقوامهم أو حكامهم في الطرف الآخر.

وحينما يتلو المسلمون القرآن الكريم ويقرؤون فيه أن الله تعالى يحاور ملائكته حول خلق آدم وذريته من بعده، ويقرؤون أن الله تعالى يحاور إبليس، ويقرؤون فيه قصص الأنبياء في محاوراتهم لمجتمعاتهم.

ويقرؤون فيه أمر الله تعالى بالدعوة إلى الدين عن طريق الحوار ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ النحل: ١٢٥.. حينما يقرأ المسلمون كل ذلك فإنه يجب أن يدفعهم إلى تبنى فلسفة الحوار، وأن يعتمدوها أسلوبا لحياتهم، ونظاما في علاقاتهم الداخلية والخارجية.

---

(١٧) د. عبدا لرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها ص٢٠٦، دمشق،ط دار الفكر، ١٩٩٦.
(١٨) اقرأ الآيتين رقم ٣٤، ٣٧، من السورة الكريمة.
(١٩) اقرأ الآية الأولى من هذه السورة الكريمة.

د- المجادلة:

مادة الجدل (الجيم والدال واللام) تدور حول عدة معان، والجدل – كما يقول ابن فارس[٢٠]– أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام..وغلام جادل إذا اشتد..والدرع المجدولة : المحكمة العمل، ويقال: جدل الحَبُّ في سنبله: قوى، والأجدل، الصقر سمى بذلك لقوته.

ومن معاني الجدل أيضا ما ذكره ابن منظور بقوله: "والجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالا. ورجل جدل ومجْدل ومجدال: شديد الجدل. ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته. ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالا، والاسم الجدلي، وهو شدة الخصومة..والجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة".[٢١]

والجدل في اصطلاح المنطقيين: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة، أو مسلمة، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان.[٢٢]

والجدل عند سقراط هو: فن الحوار بمرحلتيه التهكم والتوليد[٢٣]، والجدل عند أفلاطون هو: الذي يحسن السؤال والجواب، والغرض منه الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول للوصول إلى أعلى التصورات وأعلى المبادئ.[٢٤]

وقد استخدمت بعض المدارس الفلسفية الجدال بمعنى المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. وقوامه استعمال الاستدلالات المموهة، والحجج السوفسطائية. فلا غرو إذا قيل إن أصحاب هذا الفن يفندون كل شيء دون إثبات أي شيء.[٢٥]

(٢٠) معجم مقاييس اللغة جـ١، ص٤٣٣-٤٣٤.
(٢١) لسان العرب، جـ١١، ص١٠٥،، بيروت ط دار صادر.
(٢٢) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي.، جـ١، ص٣٩١.
(٢٣) يوسف كرم وآخرون، المعجم الفلسفي، ص٥٣.
(٢٤) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، جـ١، ص٣٩١.
(٢٥) المرجع السابق، جـ١، ص٣٩٠-٣٩١.

ومهما يكن من هذه الدلالات اللغوية والفلسفية للجدل والجدال فإن الجـدل يعنـي الخصومة والمنازعة في الكلام والحوار لإلزام الخصم بإفساد ما ذهب إليه وإثبات دعوى المتكلم، ومنه ما هو حسن ومنه ما هو قبيح. قال النووي رحمه الله: الجـدل والجـدال والمجادلة مقابلة الحجة بالحجة وتكون بحق وباطل، وأصله الخصومة الشديدة، ويسمى جدلا لأن كل واحد منهما يحكم خصومته وحجته إحكاما بليغا على قدر طاقته تشبها بجدل الحبل وهو إحكام فتله، يقال: جادله يجادله جدالاً.(٢٦)

إن أهم المجالات التي يمارس فيها الجدل قديما وحديثا هو مجال العلوم الإنسانية بعامة، والعلوم العقلية والفلسفية بصفة خاصة.

واستعراض تطور استخدام هذا المصطلح عبر التاريخ الفلسفي يكشف عن عـدة أنواع للجدل منها:

١- الجدل الخطابي أو السفسطائي. حيث لم يهتم السوفسطائيون بالبحـث عـن الحقيقة لذاتها، بل اعتمدوا على قوة المهاترة واللجاج والحجاج على حساب الحجة الواضحة، وتخيروا لذلك أسلوب الخطابة التي تعتمد على زخرف القول واختراع الحجج الزائفة.

٢- الجدل العقلي "الدياليكتيك" وهو الجدل السقراطي الذي يعتمد على فن الحـوار وتوليد المعاني.

٣- جدل النفس وهو الجدل الأفلاطوني الذي لم يستطع أفلاطـون مـن خلالـه الوصول إلى اليقين؛ لأن الجدل عنده جدل ذاتي يستند إلى الفكر والتـصورات العقلية.

---

(٢٦) د. حمد بن إبراهيم العثمان، أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة ، ص١١، ط مكتبة ابـن القـيم، ٢٠٠١م.

٤- الجدل المادي التاريخي الذي يفسر به ماركس مظاهر الحياة المختلفة عن طريق أحوال الإنسان الاقتصادية وتطور أساليب الإنتاج.

ولا يخفى أن أصحاب هذه المناهج الجدلية لم يصلوا إلى حقائق الوقائع المطلوبة لديهم، وكانوا غالبا في تناقض وتعارض، وتلبيس بين الحق والباطل.(٢٧)

أما في القرآن الكريم فقد وردت كلمة الجدل في سبعة وعشرين موضعا، في القضايا الخاصة والعامة من دينية تتعلق بقضايا العقيدة والحياة، أو اجتماعية تدخل في أمور المجتمع..وعلى أساس التحديات الداخلية والخارجية الموجهة ضد الإسلام، وقف الإسلام في وجه كل هذه التحديات ليرد التحدي بمثله.. لهذا لجأ إلى الجدل القائم على الحوار المباشر.(٢٨)

فجدل القرآن الكريم إذن هو: براهينه وأدلته التي اشتمل عليها وساقها لهداية الكافرين وإلزام المعاندين في جميع ما قصد إليه من تبيان الحقائق وترسيخها في أذهان الناس.(٢٩)

إن المتأمل في آيات الله البينات يستطيع أن يستخلص أنواعا من الجدل تفوق الجدل الفلسفي كما وكيفا وصدقا وحقا ويقينا.. فالمعروف أن الجدل القرآني إما أن يكون وعظاً، أو نصحاً، أو إجلاءً للحقائق، أو تثبيتاً للمؤمنين وإنزالاً للسكينة والأمن والطمأنينة في قلوبهم، أو لدحض الباطل وإعلاء كلمة الحق، أو لزجر أصحاب الهوى عن الخوض فيما ليس لهم به علم ولا هدى، وما إلى ذلك من الأغراض الرفيعة والمقاصد السامية.

(٢٧) أنظر د. حسن الشرقاوي، الجدل في القرآن الكريم.، ص١٦، وما بعدها، الإسكندرية ط منشأة المعارف.
(٢٨) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص١٦-١٧، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٥م.
(٢٩) أنظر مقدمة د. زاهر الألمعي لكتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم لابن الحنبلي، ص٨، بيروت ط مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م.

وهذا الجدل القرآني يفيد المتفكر إفادة تامة، ويجيب عن التساؤلات التي يمكن أن تشغل الإنسان في كل زمان ومكان ويود الإجابة الشافية عنها.(٣٠)

بين الحوار والجدل:

عاشت هاتان الكلمتان في حياة الإنسان ووعيه، منذ أن بدأ الإنسان يواجه الحياة الاجتماعية التي تختلف فيها الآراء، وتتنوع عندها الأفكار، لتجسدا له المعنى الذي تنطلق فيه أفكاره في مجال العرض وفي ميادين الصراع.(٣١)

ومن خلال الدلالة اللغوية لكلمتي الحوار والجدل نلاحظ أن الكلمة الأولى (تتسع لكل أساليب الخطاب، سواء كانت منطلقة من وضع لا يوحي بالخلاف أو يوحي به.

بينما كلمة الجدال تختزن في داخلها معنى الخلاف والشجار، وتحمل في عمقها أيضا معنى التحدي والصراع الذي يبتعد عن العدوانية والسادية"(٣٢).

وبالتالي فإن المجادلة نوع من النقاش يغلب عليه الشدة والخصومة ومحاولة الغلبة بأي طريق من الطرق. ولهذا دعا الإسلام إلى المجادلة الحسنة والمؤدبة، ونهى عن الجدال السيئ، أو ما فيه الخصومة والغلظة والشدة. وأما الحوار والمناظرة فيغلب عليها السكينة والوقار والاحترام المتبادل بين الأطراف ومبادلة الحجة بالحجة.(٣٣)

وعلى هذا فكلمة الحوار أوسع مدلولا من كلمة الجدل باعتبار تضمن الكلمة الثانية معنى الصراع، بينما نجد الكلمة الأولى تتسع له ولغيره مما يراد منه إيضاح الفكرة بطريقة السؤال والجواب.(٣٤)

---

(٣٠) ا د/ حسن الشرقاوي، لجدل في القرآن، ص١٣-١٤.
(٣١) د. محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن الكريم، ص١٥.
(٣٢) حوار الحضارات، ص١٤.
(٣٣) د. مقداد يالجن، تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية.، ص١٣، السعودية ط دار عالم الكتب، ٢٠٠٤م.
(٣٤) الحوار في القرآن، ص١٨.

هـ- جوانب من شخصية الخليل عليه السلام:

سيدنا إبراهيم عليه السلام يحتل مكانة سامية لدى أصحاب الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. والخليل عليه السلام عنوان على الكرم والتضحية، ورمز للبطولة والشجاعة، ومثل يحتذى في اليقين بالله والإخلاص في محبته، وهو واحد من أولى العزم من الرسل، وهو أبو الأنبياء "فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم فمن ذريته وشيعته"[٣٥]. وهو أبو العرب كذلك ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ الحج:٧٨.

وتذكر المصادر العربية أن مولد الخليل عليه السلام كان في بابل وهي أرض تقع بين دجلة والفرات، وكان مولده ﷺ في عهد الملك نمرود بن كنعان بن كوش.[٣٦]

وقد نشأ بين قوم يؤمنون بتعدد الآلهة، وينصبون التماثيل لعبادتها، ويتركون عبادة الواحد الأحد، مما دفع الخليل إلى جهاد قومه طويلاً لتحريرهم من عبادة الأصنام والاعتقاد بالخرافات والأساطير. ويهديهم إلى عبادة فاطر السموات والأرض ومن يملك النفع والضر والموت والحياة والسمع والأبصار والأرزاق.

ولعظيم مكانة الخليل عليه السلام وعلو منزلته أفاض القرآن في الحديث عنه، فهو المنارة والأسوة الحسنة لمن جاء بعده من الأنبياء والمؤمنين في كل عصر ومصر. وجاء حديث القرآن عن الخليل "في إحدى وعشرين سورة.. وبلغ مجموع الآيات التي مثلت هذا الحديث مائة واثنتين وعشرين آية (١٢٢) "[٣٧].

---

(٣٥) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص١٦٧. بيروت ط دار ابن كثير.
(٣٦) الإمام ابن جرير الطبرى، تاريخ الطبري، جـ١، ص٢٣٣. مصر، ط دار المعارف السادسة.
(٣٧) د. سيد محمد ساداتي ركائز الإعلام في دعوة إبراهيم عليه السلام. ص١٦، الرياض ط دار عالم الكتب، ١٩٩٤م.

ونلاحظ من خلال حديث كتاب الله عن أبي الأنبياء عليه السلام أن "القرآن الكريم يشير إلى حياة إبراهيم عليه السلام الخاصة إشارات موجزة، لكنه حين يفعل ذلك يبرز نواحي أخرى أكثر أهمية، فيتحدث عن منزلة إبراهيم عند ربه، وجهاده في سبيله، ويحلل نفسيته وما فيها من خلق سام وتضحية، ويتحدث عن رسالة التوحيد التي دعا إليها وعن الحجج العقلية التي ذكرها في بطلان عبادة الأصنام، كما يتحدث عن تقوى إبراهيم وابتهاله لربه وعمق إيمانه وإخلاصه له "(٣٨).

وتظهر الآيات القرآنية التي تحدثت عن الخليل عليه السلام، إلى أي مدى جاء حديث القرآن الكريم عن شخصية إبراهيم عليه السلام ضافيا مجليا معالمها، وكاشفا عن حقيقتها في أبعادها المختلفة النبوية والنفسية والسلوكية والاجتماعية أو الدينية والدنيوية.

ففيها بيان لاصطفاء الله له وجعله نبيا ورسولا وإماما للناس واتخاذه خليلا. وفي تلك النصوص إبراز لأخص صفاته عليه السلام، وبيان لابتلاءاته وجهاده في الدعوة إلى الله تعالى، وخضوعه وتضرعه لخالقه وهجرته وبنائه البيت العتيق، وفيها كشف لمشاعره وتطلعاته وآماله.. وفيها ثناء الله عليه والشهادة له بالجدارة والأهلية لفضل الله عليه، وفيها الأمر بتلاوة قصته والإشادة به وبذريته، والأمر بالاقتداء به وجعله أسوة للصالحين، وبراءته من المشركين ومفاصلته قومه على الحق. ولعل في استهلال تلك النصوص بوصفه بالإمامة ما يكفي في الدلالة على مبلغ جمعه للفضائل والمكارم وخصال الخير.(٣٩)

والذي يهمنا التركيز عليه من كل هذه الجوانب العظيمة في حياة وشخصية الخليل عليه السلام هو أسلوبه الدعوى الذي واجه به قومه وما كانوا عليه من باطل، والذي

(٣٨) عفيف عبد الفتاح طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص١٢٩، بيروت ط دار العلم للملايين الخامسة.
(٣٩) ركائز الإعلام، ص٢٣.

اعتمد بشكل أساسي على الحوار والجدال بالتي هي أحسن، بغرض إعلاء كلمة الله وتثبيتها وترسيخها في القلوب. ولقد جاهد الخليل طويلا وبذل جهدا كبيرا في مواجهة قومه عباد الكواكب وعباد الأصنام والأوثان، وتنوعت أساليب مقاومته للشرك ومواجهته للباطل، فقد استخدم الخليل "في دعوته صنوفا من الأساليب تراوحت بين اللين والشدة، والترغيب والترهيب، والحوار والمناظرة، والحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، والتلميح والتصريح، والتوكيد والنفي، وغير ذلك من الأساليب وفقا لحالات النفوس التي يدعوها وظروف الدعوة ومواقفها المختلفة.[٤٠]

مما يعني أن الخليل عليه السلام قد استوعب في دعوته أروع الأساليب وأبلغها ليكون إيمان الناس قائما على دعامة الفطرة نظرا واستدلالا ونقلا وعقلا وعلما وعملا.[٤١]

وكان عماد هذه الأساليب وأقواها حوارات الخليل ومجادلاته التي انطوت على كثير من الجوانب العقدية، والقيم الحوارية.

المبحث الثاني
الجوانب العقدية والقيم الحوارية
في محاجة أبي الأنبياء للنمرود

القرآن الكريم كتاب تربية وتعليم، وتأديب وتهذيب، يهدي لأقوم طريق وأحسن سبيل﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ الإسراء:٩، وهو فرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ الفرقان:١

(٤٠) المرجع السابق، ص٤٨.
(٤١) الشيخ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، جـ١٩، ص١٣٧ ، تونس، ط الدار التونسية للنشر.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره فيما يفكر به من قضايا العقيدة والحياة، ليقتنع بالفكرة الحق التي ترتبط بالله، وبالطريق الحق الذي يصل بالإنسان إلى الله.. في أجواء رائعة تتحول فيها العقيدة إلى قضية تمتزج بالإحساس والشعور، كما تنطلق فيها المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لئلا تعيش العقيدة جفاف الفكر، أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة.(٤٢)

وكان من بين أساليب القرآن في الإقناع والهداية : المحاورات والمناظرات والمجادلات التي تنوعت في موضوعاتها، وأهدافها، والمشاركين فيها، ولا نبالغ إذا ما قلنا إن الحوار في القرآن يشكل "محورا أساسيا في أبنيته ومضامينه وممارساته نظريا وعمليا، حيث اهتم الإسلام بالحوار اهتماما كبيرا باعتبار هذا الدين خاتما للأديان واستمرارا لها، لذلك وضع للحوار أساسا راسخا وبنيانا شامخا، وأقام له كيانا سامغا وشأنا رفيعا"(٤٣).

ولم لا؟ والحوار يثبت الإيمان في قلوب المؤمنين، ويشعل الحماس في النفوس الزكية لاقتلاع الأهواء والقضاء على الخرافات والأوهام التي تصرف الناس عن رب العباد، كما أنه مصدر للتوجيه والوعظ والإرشاد، وأداة لتربية الفرد والأمة، وهو ينفخ من روح الإيمان في القلوب اللاهية والقاسية، فإذا هي حية بنور هذا الإيمان تتجدد صلتها بخالقها ويستقيم أمرها على الجادة.

وقد قص علينا القرآن الكريم نبأ الحوار الذي دار بين الخليل عليه السلام وبين ملك زمانه في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

(٤٢) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص٢١٣.
(٤٣) حوار الحضارات، ص١٩.

الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٥٨

وهذا النص الكريم يتضمن على وجازته كثيرا من الجوانب العقدية والقيم الحوارية، ومنها ما يأتي:

١- شرعية الحجاج والمناظرة:

هذه الآية الكريمة تدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة وفي القرآن والسنة كثير لمن تأمله.. وهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين؛ لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض شبهة الباطل. وجادل رسول الله ﷺ أهل الكتاب وباهلهم بعد الحجة.. وفي قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ آل عمران:٦٦ دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر.. ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل وأن يقبل منها ما تبين.(٤٤)

٢- ولاية الله لأبي الأنبياء:

تتحدث الآية السابقة على هذه الآية عن ولاية الله تعالى للمؤمنين، وولاية الطاغوت للكافرين، وآية الحوار لا تبتعد كثيرا عن هذا المعنى، بل هي متصلة به وشاهد عليه، فكأن الحق يريد أن يقول لنا: "انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عليه فيظل على نور من ربه، وإلى الذي حاجه كيف كان بولاية الطاغوت له يعمى عن نور الحجة وينتقل من ظلمة من ظلمات الشبه والشكوك إلى أخرى"(٤٥). وهي قيمة إيمانية ينبغي أن يعيها كل مسلم يريد أن يلزم طريق الحق وينهج النهج المستقيم، حينئذ يجب ألا يعتمد على وسائله البشرية

(٤٤) الإمام / القرطبي،الجامع لأحكام القرآن. ج٣، ص١٨٦، بيروت ط دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
(٤٥) الشيخ/ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٤٦، بيروت ط دار المعرفة للطباعة والنشر.

وإمكانياته الذاتية مغتراً بها ومكتفياً بها وحدها، بل لابد أن يسبق ذلك ويصحبه كذلك التماس النور الإلهي واستصحاب معيته والعيش في كنف ولايته التي تخرج المسلم من الظلمات إلى النور.

٣- الابتلاء بالنعمة:

تحكي الآية مواجهة الخليل لطاغية من أكثر الطغاة تمردا، حيث بلغ به الطغيان حدا خيل إليه معه أنه الإله الذي يجب على الناس أن يعبدوه من دون الله..ولم يحدثنا القرآن عن اسمه، ولكن تاريخ القصص الديني للأنبياء يعطيه اسم النمرود، ولا يهمنا ذلك في قليل أو كثير لأن القيمة تتمثل بالنماذج الحية فيما تمثل من مواقف حاسمة وتجارب رائدة. وقد وقف إبراهيم معه في قصة الحوار موقفا حاسما قويا، حاول أن يثير فيه قضية الألوهية وارتباطها بالقدرة المطلقة التي لا يملكها هذا الطاغية.(٤٦)

وهذا الحوار يعرض على النبي ﷺ وعلى الجماعة المسلمة في أسلوب التعجب من هذا المجادل، الذي حاج إبراهيم في ربه، وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب. إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرا لوجود الله أصلا، إنما كان منكرا لوحدانيته في الألوهية والربوبية، ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده.. وكذلك كان منكرا أن الحاكمية لله وحده فلا حكم إلا حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع(٤٧).

والعجيب من أمر هذا الملك –وأمثاله– أنه ينسى أن الملك والسؤدد والسلطان نعمة من الله على بعض خلقه، يبتليهم بها ليتميز الشاكر من الجاحد الذي يغتر بما أوتى من فضل الله، ويظن أن هذا الفضل منسوب إلى ذاته وبمحض كسبه وكده وجهده العقلي، كما قال قارون ﴿إنما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ القصص:٧٨، وينسى هؤلاء أن

(٤٦) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن ص٢٦٠.
(٤٧) الشهيد/ سيد قطب،في ظلال القرآن، جـ١، ص٢٩٧، القاهرة، ط دار الشروق، ١٩٧٧م..

العطاء امتحان من الله صاحب العطاء كما أن الحرمان أيضا امتحان واختبار ليميز الله الخبيث من الطيب، ومن ثم يعجب الله من حال هذا النمرود وهو يعرض حواره مع أبي الأنبياء. بقوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ إنه "تعبير التشنيع والتفظيع، وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء، فالفعلة منكرة حقا: أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء. وأن يدعى عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله"(٢).

٤- توظيف قضية الإحياء والإماتة:

يبدأ الحوار – بعد التعجب من حال الملك- بقوله سبحانه: ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت﴾ ويبدو أن هذا جواب سؤال وجه إلى أبي الأنبياء سابقا تم حذفه من السياق، وكأن الملك "كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلى عبادته وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفه أحلام عابديها لأجله. فأجاب بهذا الجواب"[٤٨].

ووصف الخليل لربه بأنه المحيي المميت تذكير بقاعدة من قواعد التصور الإسلامي فيما يتعلق بسر الحياة والموت وحقيقة كل منهما، هذه الحقيقة التي تشهد بأن القادر على الإحياء والإماتة هو الرب الذي لا إله غيره ولا معبود بحق إلا هو، وهذا الاستدلال الإبراهيمي يصفه الإمام الرازي بقوله: "دليل إبراهيم عليه السلام كان في غاية الصحة، وذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، والإحياء والإماتة كذلك"[٤٩].

والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة، المعروفتان لحس الإنسان وعقله، وهما – في الوقت نفسه- السر الذي يحير، والذي يلجئ الإدراك البشري إلجاء إلى مصدر آخر غير بشري، وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق، ولابد من

(٤٨) تفسير المنار، جـ٣، ص٤٦.
(٤٩) مفاتيح الغيب، جـ٣، ص٥٦١، المنصورة ط مكتبة الإيمان، ١٩٩٢م.

الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنـــه كـــل الأحياء. ومن ثم عرف إبراهيم عليه السلام ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيهـــا أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد.(٥٠)

ونلاحظ أن الحق عز وجل ساق على لسان الخليل عليه السلام هذا الدليل المتضمن تقديم الحياة على الموت، مع أنه سبحانه قدم الموت على الحياة في آيات أخـــرى منهـــا قوله سبحانه ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾الملك:٢، ومنها ما حكاه على لسان إبـــراهيم عليه السلام ﴿والذي يميتني ثم يحيين ﴾ الشعراء: ٨١، فلأي سبب قدم في هذا الحـــوار الإبراهيمي الحياة على الموت؟

يجيبنا الإمام الرازي بعد أن ساق السؤال السابق بقوله: لأن المقصود مـــن ذكـــر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح، ولاشك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة هاهنا في الذكر(٥١).

وعلى الرغم من وضوح الجواب الذي قدمه أبو الأنبياء عليه السلام وقوة استدلاله على ربوبية الحق وحده وألوهيته، إلا أن النمرود أنكر هذا الجواب ولم يسلم بـــه، ورأي "في كونه حاكما لقومه وقادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظـــاهر الربوبية. فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم، فأنا إذن الـــرب الذي يجب عليك أن تخضع له وتسلم بحاكميته"(٥٢). ومن هنا ادعى أنـــه قـــادر علـــى الإحياء والإماتة وقال متبجحا ﴿أنا أحيي وأميت﴾ في أسلوب تمويهي يعتمد على اللعـــب بالألفاظ، ليستغل بذلك سذاجة أتباعه محاولا تلبيس الحق بالباطل، وتحقيق نصر للباطـــل

(٥٠) في ظلال القرآن، جـــ١، ص٢٩٧-٢٩٨.
(٥١) مفاتيح الغيب، جـــ٣، ص٥٦٢.
(٥٢) في ظلال القرآن، جـــ١، ص٢٩٨.

الذي يعتنقه على الحق الذي يدعو إليه إبراهيم عليه السلام، ومعنى قوله ﴿أنا أحي وأميت﴾ أي أحيي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله"[٥٣].

وهذا هو التمويه والتزييف للحقائق. وأهل الباطل في كل زمان ومكان يعتمدون على ذلك في نشر باطلهم والدفاع عن مزاعمهم الواهية. ففرعون حاول قتل موسى عليه السلام ليحمي بزعمه الأديان والأوطان من شره وفساده ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأرض الْفَسَادَ ﴾ غافر: ٢٦، وكأن فرعون هو الصالح وموسى هو الفاسد المبطل. والذي يؤكد أسلوب التمويه في ادعاء النمرود السابق وقلبه للحقائق ولعبه بالألفاظ أن "جوابه منقطع عن الدليل لا يتصل به بالمرة، فإنه أراد أن يكون سببا في الإحياء والإماتة، والكلام في الإنشاء والتكوين لا في اتخاذ الأسباب والتوسل في الشيء المكون"[٥٤]، وفرق كبير بين إنشاء ظاهرتي الموت والحياة وغيرهما إنشاء، وبين فعل ذلك عن طريق الوسائط والأسباب، فالأول لا يقدر عليه إلا الله، والثاني يستطيعه كل من ملك أسباب الفعل والواسطة إلى إيقاعه. وهذا مالم يقصده الخليل عليه السلام وإنما قصد بالذي يحيي ويميت: "الذي ينشئ الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرهما ويزيل الحياة بالموت، و عبر بالذي الدال على المعهود المعروفة صلته دون "من" التي فيها الإبهام، وبالمضارع الدال على التجدد والاستمرار لإفادة أن هذا شأنه دائما كما هو معهود معروف لمن نظر في الأكوان نظر المفكر المستدل"[٥٥].

---

(٥٣) تفسير المنار، جـ٣، ص٤٦.
(٥٤) تفسير المنار، جـ٣، ص٤٦.
(٥٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

٥- اللجوء إلى الدليل الكوني:

ولما كان ادعاء الملك بأنه قادر على الإحياء والإماتة فيه مغالطة كبرى وافتـــرا ء على الحقيقة، لأن الإحياء الحقيقي- كما أشرنا- لايكون إلا بالإيجاد من العدم لمن شاءت الإرادة الإلهية له الحياة، والإنشاء والتكوين من لا شيء ابتداء. عندئذ "لم يرد إبـــراهيم عليه السلام أن يسترسل في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يماري في تلـــك الحقيقة الهائلة. حقيقة منح الحياة وسلبها. هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية إلى اليوم شيئا.. وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية،وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله ﴿ربي الـــذي يحيـــي ويميت﴾ إلى طريقة التحدي وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله فقال: ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾[٥٦].

وهكذا فإن الخليل عليه السلام لما رأى من خصمه المعاندة واللجاجة والمغالطة أراد أن يستدرج خصمه وأن يحيطه بلجام من الإلزام والإفحام، فكأنه قال له: لو ســلمنا لــك إحدى مقدمات دليلك جدلا –وهي قدرته على الإحياء والإماتة- فإننا نريد منك البرهـــان على المقدمة الثانية، وهي: أن من يحيي ويميت قادر على تسخير هـــذا الكـــون، فهـــل تستطيع أن تغير شيئا من نظام هذا الكون على خلاف ما هو عليه الآن؟[٥٧]

وقد فهم النمرود – على طغيانه وغروره- من هذه الحجة الإبراهيميـــة أن هـــذا النظام في سير الشمس لا بد له من فاعل حكيم إذ لا يكون مثله بالمصادفة والاتفاق، وإله إبراهيم الذي يدعو إليه هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته أن تكون الشمس على ما نرى. ومن فهم هذا لا يمكن أن يقول: اطلب من هذا الحكيم أن يبطل سنته ويرجع عن

(٥٦) في ظلال القرآن، جـــ١، ص٢٩٨.
(٥٧) مناهج الجدل في القرآن ص١٤٦.

حكمته [٥٨]، فيخرج الشمس من المغرب بدلا من المشرق، ويدعي النمرود تكبرا وعنادا أنه هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، وبالتالي فعلى إله إبراهيم أن يخرج هو الشمس من المغرب.وما كان للنمرود أن يرد على الخليل بهذا الادعاء وبهذه المكابرة لأن الخليل عمد "إلى الشمس دون سائر الآيات الكونية الأخرى ليلزم خصمه بأحد أمرين كلاهما من صميم دعوة إبراهيم عليه السلام:

الأول: قطع لجاجة الخصم وإفحامه وإثبات عجزه، وقد حصل هذا الأمر وفقا لما أراده إبراهيم عليه السلام ولله الحمد.

الثاني: أن إبراهيم قد خبأ للخصم في هذا الطلب إلزاما آخر يفسد على الخصم جمهور أتباعه ومناصريه لو استرسل في مغالطته، إذ كانوا يعتقدون في الكواكب بأنها مؤثرة ويعتبرون الشمس الإله الأكبر، فلو قال الملك من قبيل المكابرة والمعاندة: أنا الذي أتيت بالشمس من المشرق وأنا الذي سخرتها تجرى في مدارها على هذا النظام القائم، لقال إبراهيم عليه السلام: ما دمت أنت المدبر لهذه الأفلاك والمسير لها فكيف يعتقد قومك بأنها آلهة يعبدونها من دونك فهل يكون الإله مدبراً أو مسيرا، وهذا أمر يستلزم بطلان اعتقادهم في هذه الكواكب بأنها آلهة.. وبهذا يكون إبراهيم عليه السلام قد خرج من هذا الجدال بنتائج الانتصار على الباطل".[٥٩]

وهذا المسلك الاستدلالي الذي سلكه أبو الأنبياء عليه السلام يقدم لنا نموذجا يمكن الاسترشاد به والاستفادة منه في كيفية طرح البرهان على الخصم، والاستدلال العقلي والمنطقي في الحوار، حتى يتبين الحق للخصم فيتبعه إن كان منصفا راغبا في الاهتداء إلى الحق والحقيقة.

(٥٨) تفسير المنار، جـ٣، ص٤٧.
(٥٩) مناهج الجدل، ص١٤٧. وانظر في بيان اعتقاد قوم الخليل في الكواكب : الملل والنحل للشهرستاني،جـ٢ ص٥٣

وهناك فائدة أخرى نستلهمها من هذا الحوار الإبراهيمي للنمـرود، تنفعنـا فـي مواجهة الكثيرين ممن يحاولون أن يموهوا الحقائق على البسطاء من الناس باللجوء إلى الأساليب الساذجة التي يخدعون فيها الناس، سواء في ذلك ما يتعلق بشؤون العقيدة وما يتصل بأمور الحياة، فنعمل على أن نستلهم أسلوب إبراهيم النبي – عليه السلام– فـي الانتقال إلى التحديات الواضحة التي لا تخفى على أحد، ولا تنطلي –بالنتيجة – على أحد، مما يعطل خطة التمويه والتضليل. ولابد لنا – في سبيل الوصول إلى ذلك – من النفـاذ إلى واقع الأساليب المضللة التي يخضع لها البسطاء من الناس، والأسـاليب الـصارخة التي تملك قوة التحدي، من دون أن يستطيع الآخرون ردها، أو مقاومتها علـى الأقـل. وهذا ما يفرض على العاملين أن يقوموا به من أجل أن يلاحقوا الواقع وأسـاليبه التـي تحكمه وتوجه خطواته بكل وعي ودقة وشمول وانفتاح.(٦٠)

٦- الجرأة في الحق واليقين بانتصاره على الباطل

يدل حال هذا الملك الطاغية المتكبر المغرور بالملك الذي خوله الله إياه على كمـال حال الخليل عليه السلام في إظهار الدعوة إلى الله، وتمام جرأته في التمسك بالدين الحق، وعدم تهيبه من بطش ذي السلطان، وحسن ثقته في الله وقوة يقينه بالواحد المعبود جل شأنه، مما دفعه لمواجهة أهل الباطل وقرعهم بالحجة والبرهان دون ممالأة أو تخـوف. وما أحوج المسلمين – في زماننا– بعامة والعلماء منهم خاصة إلى الوقوف أمـام هـذا الدرس الإيماني طويلا والتحلي بما تحلى به الخليل عليه السلام من جـرأة فـي الحـق واستعداد كامل للتضحية من أجل نصرة العقيدة ورفع لواء الحق.

لقد انتصرت حجة إبراهيم على شبهة النمرود ومنطق الحق على زيـف الباطـل، وصدق الإيمان بالله وقوة الاعتماد عليه، على الاغترار بالأسباب والنعم والتقـوى بهـا

(٦٠) الحوار في القرآن، ص٢٦١-٢٦٢.

على الكفر والشرك والعناد والتكبر، وصار النمرود إلى البهتان الذي حكاه القرآن بقوله تعالى ﴿فبهت الذي كفر﴾ يعني "بقى مغلوبا لا يجد مقالا ولا للمسألة جوابا"[٦١]، فقد أدركته الحيرة، وأخذه الحق من نصوع الحجة وسطوعها فلم يحر جوابا[٦٢]. فالتحدي قائم والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم أو الجدال والمراء.. وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر فيبهت ويلبس ويتحير. ولا يهديه الله إلى الحق؛ لأنه لم يلتمس الهداية ولم يرغب في الحق، ولم يلتزم القصد والعدل: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٦٣].

٧- الهداية الإلهية لا تتعارض مع الحرية الإنسانية:

قيمة إيمانية مهمة ألمحنا إليها في الفقرة السابقة على لسان صاحب الظلال نزيد إيضاحها هنا فنقول: ختم الله هذا الحوار بقوله سبحانه ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ معلقا على حال هذا الملك الطاغية الذي حاج إبراهيم في ربه. وهذه الآية وأمثالها مما تتحدث عن الهداية والإضلال وأنهما بيد الله تعالى مثل قوله سبحانه ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ الأنعام: ٣٩، وقوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ القصص:٥٦....

يوهم ظاهرها أو يجعل البعض يفهم أو يقرر أن العبد ليس له حرية حقيقية في أفعاله وأن الهداية والإضلال من الله تعالى، وبالتالي فالإنسان مجبر على ما يفعل ولا خيار له في اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال. وهذه مسألة خلافية بين الفرق الكلامية لا نحب أن نخوض فيها حتى لا نخرج عن سياق بحثنا، لكن الذي نود قوله هنا هو: أنه لا تعارض بين حرية العبد في مباشرة أفعاله حتى يكون مسئولا عنها وبين كون

(٦١) مفاتيح الغيب، جـ٣، ص٥٦٦.
(٦٢) تفسير المنار، جـ٣، ص٤٧.
(٦٣) في ظلال القرآن، جـ١، ص٢٩٨.

الهداية والإضلال بيد الله عز وجل، لأن الهداية والإضلال – من خلال استقراء النصوص القرآنية– بمثابة نتائج لمقدمات،وهي علاقة مفاعلة ومشاركة بين طرفين: العبد من جهة والرب من جهة أخرى، فكما أن الطعام يغذي والماء سبب الري، والنار تسبب الحريق، وعوامل معينة تؤدي إلى نزول المطر، فكذلك هناك أسباب ومقدمات تؤدي إلى الهداية، وأخرى توقع في الضلالة. فالهداية ثمرة للعمل الصالح والضلال نتيجة لعمل طالح، وإسناد الهداية والإضلال إلى الله تعالى في الآيات القرآنية على اعتبار أنه سبحانه هو الذي وضع نظام الأسباب والمسببات، لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية. وهذا المعنى واضح في مثل قوله تعالى ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ محمد: ١٧، وقوله ﴿يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ البقرة:٢٦، ٢٧، فهناك أسباب إذن يقترفها العبد توقعه في الضلال وتخرجه عن منهج الحق؛ لأنه آثر الهوى واستحب العمى على الهدى، فكافأه مولاه بأن أصمه وأعمى بصره بمقتضى نظامه سبحانه في ارتباط الأسباب بالمسببات.(٦٤)

وعموما فإن حوار الخليل مع النمرود الذي عرضه ربنا على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة يظل مثلا للضلال والعناد، وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين.(٦٥)

(٦٤) راجع: د. أحمد الجلي، دراسات في العقيدة الإسلامية، ص١٣٤، وما بعدها.
(٦٥) في ظلال القرآن جـ١، ص٢٩٨ – ٢٩٩.

المبحث الثالث
الجوانب العقدية والقيم الحوارية في حوار الخليل مع أبيه

ننتقل مع أبي الأنبياء عليه السلام إلى نموذج حواري جديد ومواجهة أخرى من مواجهاته الحاسمة والقوية للباطل وأهله، وذلك من خلال الحوار الدائر بينه وبين أبيه ضمن لقطة من لقطات قصته في القرآن الكريم المذكورة في سورة مريم في الآيات من ٤١-٤٨، وتكشف هذه الحلقة من قصة الخليل عليه السلام "عما في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك.. وتبدو في هذه الحلقة - أيضا- شخصية إبراهيم الرضى الحليم، تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التي يحكي القرآن ترجمتها بالعربية، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه"[٦٦]. الذي أراد الخليل أن يحرره من عبادة الأصنام وما يستتبع ذلك من الاعتقاد بالخرافات والأساطير، ليوصله بعد ذلك إلى الحقيقة العظمى التي يجب أن ينشدها كل إنسان عاقل على هذه الأرض، ألا وهي عبادة الله وحده. وهذا ما يخاطب به سيدنا إبراهيم أباه في هذا الحوار الذي معنا الآن، والذي تكشف النقاط التالية أهم ماتضمنه من جوانب عقدية وقيم حوارية على النحو التالي.

- حدة الصراع بين الكفر والإيمان:

تهدف سورة مريم- التي قصت علينا نبأ حوار الخليل مع أبيه- إلى إثبات الوحدانية والنبوة والبعث، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبتوا معبودا سوى الله حيا عاقلا وهم النصارى، وفريق أثبتوا معبودا هو جماد ليس بحي ولا عاقل وهم عبدة الأصنام[٦٧]. فلما بين تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال تعالى ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم.. الآيات﴾، وإبراهيم هو الذي ينتسب إليه العرب، ويقول المشركون: إنهم سدنة البيت الذي بناه هو وإسماعيل[٦٨]. ولما كان

(٦٦) في ظلال القرآن جـ٤، ص٢٣١١.
(٦٧) الشيخ أحمد مصطفى المراغي/ تفسير المراغي، جـ١٦، ص٥٥، القاهرة ط الحلبي، ١٩٧٢م.
(٦٨) في ظلال القرآن، جـ٤، ص٢٣١١.

إبراهيم قد جاء بالحنيفية وخالفها العرب بالإشراك وهم ورثة إبراهيم كان لتقديم ذكـره على البقية الموقع الجليل من البلاغة [٦٩]. ومناسبة ذكر هذا الحوار الدائر بين إبـراهيم وأبيه هنا هي أنه يمثل للنبي ﷺ "صورة من الصراع الحـاد بـين الإيمـان والكفـر، والمؤمنين والكافرين، وأن هذا الصراع قد يبلغ الحد الذي يفرق بين الابن وأبيه.. وإذن فإنه ليس للنبي أن يأسى كثيرا على ما وقع أو سيقع بينه وبين أهله وقومه، من فرقـة واختلاف" [٧٠].

وفي ذلك تسلية للنبي – ﷺ- على ما لقى من مشركي قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم[٧١].

- صعوبة مهمة الخليل وتحليه بأدب الخطاب:

كان والد سيدنا إبراهيم في مقدمة من ينحتون الأصنام ويبيعونها للناس، كما كـان من عابدي هذه الأصنام- كما هو صريح القرآن- وقد عز على الخليل ما صنعه أبـوه وهو أقرب الناس إلى قلبه، فرأى أن من واجبه تجاه أبيه نصحه وتحذيره عاقبة عبادته الضالة لهذه الأصنام. ومن هنا رأى إبراهيم أن من أولى مهماته في الدعوة إلـى الله أن يبدأ بدعوة أبيه لأن بقاءه على الكفر يترك نقطة ضعف في موقفه، وقد يخلق له مصاعب داخلية تعطل بعض خطواته أو تجلب له مشاكل غير منتظرة. وقد كان الحـوار يواجـه صعوبة في بدايته، لأنه حوار الابن لأبيه في مجتمع يعتبر للأبوة قداستها وقيمتها الكبيرة التي ترقى إلى درجة الخضوع المطلق الذي يلزم الأبناء أن يقوموا به تجاه الآباء، ولهذا كان إبراهيم حذرا في أسلوبه، فلم يلجأ إلى أي عنصر من عناصر الإثارة التـي تتنـاول الذات بالتجريح والتبكيت، بل حاول- على العكس من ذلك- أن يعطي أسلوبه في الحوار، جوا مشحونا بالعاطفة التي تجعلك تشعر وأنت تقرأ الحوار أن الموقف قد يعبر عن حالة من حالات التوسل إلى أبيه[٧٢].

(٦٩) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١١١.
(٧٠) عبد الكريم الخطيب،التفسير القرآني للقرآن، جـ٨، ص٧٣٨، القاهرة ط دار الفكر العربي.
(٧١) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١١١.
(٧٢) الحوار في القرآن ص٢٥٢.

وقد وصف الحق عز وجل عبده إبراهيم عليه السلام في صدر هذا النموذج الحواري بالصديقية والنبوة فقال ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾ مريم:٤١، ووصفه عليه السلام بالصديق "لفرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى، لا يصده عن ذلك ما قد يكون عذرا للمكلف، مثل مبادرته إلى محاولة ذبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا، فالصدق هنا بمعنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها"[٧٣] أما وصفه بالنبي فمعناه: كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس، وأي رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده.[٧٤] وهذا الوصف بالنبوة هنا يدل على أن قوله لأبيه ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر﴾ إنما كان عن وحي من الله ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام[٧٥]. ولكن بأي أسلوب خاطب الخليل أباه؟

لقد خاطبه بأسلوب يفيض أدبا واحتراما، ولهجة تسيل رقة وحنانا، مستهلا كل نصيحة يقدمها لأبيه بقوله له ﴿يا أبت﴾ توسلا إليه واستدرارا لعطفه واستمالة لقلبه. ونلاحظ أن إبراهيم عليه السلام "افتتح خطابه لأبيه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء، قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه"[٧٦] مما يؤكد حرص الخليل على بلوغ النصيحة لأبيه ورغبته في انتفاعه بها.

واستهلال حوار الخليل لأبيه على هذا النحو المتقدم يمثل لونا من ألوان الأدب في الخطاب من الابن لأبيه "حيث تصدر كل دعوة من إبراهيم إلى أبيه بقوله ﴿يا أبت﴾.. وقد تكرر هذا النداء الرقيق الحبيب أربع مرات وهذا فوق أنه أدب يوجبه حق الأبوة، هو أدب تقتضيه النبوة، ويقضي به الأسلوب الذي تقوم عليه دعوتها في الناس، كما يقول

(٧٣) التحرير والتنوير جـ٨، ص١١٢.
(٧٤) مفاتيح الغيب، جـ١٠، ص٤٦٥.
(٧٥) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١١٣.
(٧٦) المرجع السابق، جـ٨، ص١١٣.

سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"[٧٧] النحل : ١٢٥.

• تنوع مسالك الاستدلال:

مما تجدر ملاحظته أن القرآن الكريم وهو يدلل على قضايا العقيدة لم يسلك مسلكا واحدا في الاستدلال، بل نوع في طرق الأدلة ليقنع الجميع، ويرضى كل ملكات النفس الإنسانية، ويسد الطريق على الخصوم ويغلق في وجوههم أبواب العناد والجدل. ومن هنا فإن منهج القرآن في تقرير قضايا العقيدة "يخاطب الإنسان من حيث كذلك، فلا يخاطب طبقة معينة من البشر يرتفع بها المستوى أو ينخفض.. فيقع في التناقض مع المستويات الأخرى. ولا يخاطب في الإنسان قوة من قواه دون الأخرى.. فيقع في التناقض مع القوة التي يهملها. وإنما هو يتوجه إلى الإنسان.. وهذا يعني أن الإسلام يلتقي مع الإنسان في قواه المختلفة ويتعامل معها جميعا: العقل والوجدان والإرادة جميعا"[٧٨]. وبالتالي فإن طرق القرآن الاستدلالية هي مسالك للإيمان يخاطب فيها الإنسان بكليته ليستنفر كل قوى الإدراك فيه من مبادئ عقلية، ومدارك حسية، وغرائز فطرية، ومشاعر وجدانية باطنية، فتتفاعل جميعها، ويقوم كل منها بدور يساعد على الاقتناع بالحقيقة والإيمان بها.

وتتضح هذه المعاني في دعوة الخليل لأبيه من خلال حواره معه وهو يدعوه إلى الإيمان بقوله له: ﴿يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا. يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون

(٧٧) التفسير القرآني للقرآن جـ٨، ص٧٣٨.
(٧٨) د. يحيى هاشم حسن فرغل/ العقدية الإسلامية بين الفلسفة والعلم، ص١٦٧-١٦٨، أبو ظبي ط مكتبة المكتبة.

للشيطان وليا﴾ مريم: ٤٢-٤٥، ففي هذا الحوار الإبراهيمي مخاطبة للعقل أولا، ثم استنفار للعاطفة الوجدانية من مدخل البنوة لعلها ترق وتلين، ثم استثارة للفطرة بتخويفها من المصير القادم وإنذارها بعذاب الله وغضبه، وهكذا يخاطب الاستدلال القرآني كل ملكات النفس البشرية مما يميزه عن مناهج الفلاسفة والمتكلمين العقلية الصارمة[٧٩].

- **إقامة الدليل العقلي على بطلان عبادة الأصنام:**

خلق الله الإنسان وشرفه بالعقل ودعاه إلى إعماله واستخدامه الاستخدام الأمثل من خلال النظر والتفكر، لكن الإنسان وهو يوظف عقله قد تعترضه بعض عوائق التفكير الصحيح من التقليد الأعمى، وإتباع الظن وعدم الاعتماد على اليقين في التصورات أو الحكم على الأشياء، والتأثر بالهوى الذي يضعف قدرة العقل في رؤية الحقائق والحكم عليها. ومن هنا ناقش الخليل أباه وهو يحاوره في مسألة عبادته للأصنام مستثيرا فيه العقل المنصف المتحرر من التقليد ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ وقد استخدم في هذه اللقطة الحوارية مع أبيه أجمل الأدب في الحجاج، وأبين القول في المجادلة، وأقوى حجة في مواجهة خصمه، وبهذا "ضرب إبراهيم - عليه السلام- مثلا أعلى لكل مجادل بالحق حيث جمع بين قوة الحجة وأدب الحديث"[٨٠]. لقد طرح الخليل - هنا- مسألة عبادة أبيه للأوثان على بساط البحث العقلي، واصفا هذه الأوثان "بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة في الإلهية"[٨١]، وهي كونها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك نفعا ولا ضرا. وكأن الخليل يريد أن يقول لأبيه: "إنك جهدت كل الجهد، واستعملت كل العلم حتى عملت أصناما في مقابلة الأجرام السماوية، فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعا وبصرا، وأن تغنى عنك وتضر وتنفع"[٨٢].

(٧٩) قارن: د/ عبد المجيد النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة ، ص٦٥-٦٦، ط دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧.
(٨٠) مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص١٦٣.
(٨١) مفاتيح الغيب للرازي جـ١٠، ص٤٦٦.
(٨٢) الشهرستانى/ الملل والنحل ، جـ٢، ص٥٢ .

وهذا هو الجانب الإلزامي في هذه المجادلة، ومعنى هذا : أن العبادة قربة ووسيلة إلى من يملك النفع والضر ويتصف بصفات الكمال والجلال، هذه الآلهة التي تعبدها من دون الله لا نرى لها شيئا من هذه الخصائص.. بل إن مظاهر الكمال والنفع والضر فيك أظهر منها، لأنك تسمع وتبصر وتتحرك فأنت أشرف درجة منها. وكيف يكون العابد أكمل وأشرف من المعبود، وهذه حقيقة لا يجد والد إبراهيم عنها محيصا، ومما يزيد هذه الحقيقة بيانا أن أبا إبراهيم يصنع هذه المعبودات بيده فهل المصنوع من حجارة أو غيرها من الماديات يصلح أن يكون إلها [٨٣].

وهكذا استهجن الخليل من أبيه "أن يعبد ما يستخف به كل ذي لب، ويأبى الركون إليه كل ذي عقل.. وقصارى ما قال – لأبيه – إن الإنسان السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره، فكيف تعبد ما خرج عن الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه، وعن الإنسانية بفقد العقل، وعن الحيوانية بفقد الحواس. أما كان لك عبرة في حاجته وفقده السمع والبصر؟"[٨٤].

- الدعوة إلى الحنيفية السمحة:

بعد أن أقام الخليل الحجة على أبيه في بطلان توجهه بالعبادة للأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن نفسها أو غيرها شيئا، دعاه إلى الإيمان بالملة العادلة المستقيمة وهي الحنيفية السمحة التي لا شطط فيها ولا اعوجاج، فهو بعد أن أبطل مذاهب الصابئة اجتهد في تقرير مذهب الحنفاء، وحاول أن يبين لأبيه "أن الفطرة هي الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها"[٨٥].

(٨٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص١٦٤-١٦٥.
(٨٤) تفسير المراغي، جـ١٦، ص٥٦.
(٨٥) الملل والنحل جـ٢، ص٥٣-٥٤.

ومن هنا خاطبه بقوله ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فـاتبعني أهـدك صراطا سويا﴾ والمعنى: أي يا أبي إني وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منـك لأنـي ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه، فاتبعني أهدك طريقا مستقيما لازيغ فيه، يوصلك إلى نيل المطلوب وينجيك من كل مرهوب(٨٦).

ونلاحظ أن إبراهيم قد صدر دعوته لأبيه هنا بإعادة ندائه بوصف الأبوة وفي ذلك "تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة المستفاد من النداء الأول"(٨٧). بالإضافة إلـى ترقيق قلبه بتذكيره بهذه العلاقة الحميمة التي تربط بينهما. كما نلاحـظ – مـن ناحيـة أخرى– في محاورة إبراهيم لأبيه "أنه حاول تبرير دعوته لأبيه بأنه قد جاءه من العلـم مالم يأته، ولذا فلا مانع هناك – من وجهة اجتماعية– أن يدعو الابن أباه مع حفظ مقام الأبوة"(٨٨)، وبالتالي فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده، إذا كان الولد علـى اتصال بمصدر أعلى فإنما يتبع ذلك المصدر، ويسير في الطريق إلى الهدى(٨٩).

وهذا الاتصال بالمصدر الأعلى هو النبوة والتلقي عن وحي السماء، ففـي قـول إبراهيم ﴿قد جاءني﴾ إيماء إلى أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبئ (٩٠)، وهذا تأكيد لمـا ذكرناه من قبل في بداية التعليق على هذا الحوار، وهنا قيمة إيمانية ينبغي التركيز عليها وهي: أن دعوة إبراهيم لأبيه بإتباعه له ليس فيها دعوة إلى التقليد الذي ينعاه الأنبيـاء والمصلحون على أقوامهم، لأن اتباع النبي ليس تقليدا وإنما هو فرصة للاستفادة مـن هدي السماء والاستنارة بنور الوحي والاستسلام للدين الحق الذي ارتـضاه الله لعبـاده وأرسل به رسله مبشرين ومنذرين. وشتان بين تقليد الأنبياء واتباع الهدى الذي جاؤوا

(٨٦) تفسير المراغي جـ١٦، ص٥٦.
(٨٧) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١١٥.
(٨٨) الحوار في القرآن، ص٢٥٣.
(٨٩) في ظلال القرآن،جـ٤، ص٢٣١١.
(٩٠) تفسير المراغي، جـ١٦، ص٥٦.

به من لدن الحكيم الخبير الذي يعلم ما يسعد عباده وما يشقيهم في العاجل والآجل، وبين التقليد لمن هو محدود وقاصر في كل ملكاته وأدواته.

ونلاحظ أخيرا هيمنة الأدب الإبراهيمي – في هذه اللقطة الحوارية– في خطابه لأبيه وترفقه به ومدى تواضعه عليه السلام. وهذه المعاني والآداب الجميلة في الحوار يشير إليها صاحب الكشاف بقوله: "ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق"[٩١]. نعم إن التعبير بقوله: ﴿جاءني من العلم﴾ يفيد التواضع من الخليل الذي لم ينسب الفضل في هذا العلم ولا في هذه الهداية إلى نفسه، بل كل ذلك قد جاءه من مصدر العلم والهداية وهو الله العلي الحكيم، وبطبيعة الحال فإن الذي عنده علم من الله أحق بالاتباع والاقتداء ممن لا علم عنده ولا هداية لديه.

- التحذير من اتباع الشيطان:

بعد هذا الكشف عما في عبادة الأصنام من ضلالة، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه، يبين له أن عبادته للأصنام تجعله يسير في طريق الشيطان، وهو عليه السلام لشفقته بأبيه يحرص على هدايته إلى طريق الرحمن، فيتوجه إليه مناديا إياه بهذا النداء الرقيق ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا﴾ أي : لا تطعه لأنه عاص لله، فنفره بهذه الصفة عن القبول منه، لأنه أعظم الخصال المنفرة[٩٢]. فعبادة الشيطان المذكورة هنا ليست على حقيقتها كما هو الحال في عبادة ما لا يسمع ولا يبصر المشار إليها آنفا، وإنما معنى هذه العبادة ينحصر في الطاعة لإغواء هذا الشيطان اللعين ووساوسه، والمقصود من نهي الخليل لأبيه عن عبادة الشيطان بقوله ﴿لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي

(٩١) التحرير والتنوير جـ٨، ص١١٥ نقلا عن الكشاف للزمخشري.
(٩٢) مفاتيح الغيب، جـ١٠، ص٤٦٨.

إلى ذلك والراضي به[٩٣] فالشيطان هو الذي يغرى بعبادة الأصنام من دون الله، فالــذي يعبدها كأنما يتعبد الشيطان[٩٤] ثم يبين الخليل سبب نهيه لأبيه عن طاعة الشيطان بقوله ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصيا﴾ فهذه الجملة تعليل للنهي عن عبادته وعبــادة آثــار وسوسته بأنه شديد العصيان للرب الواسع الرحمة.

وذكر وصف عصيا الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعــل كــان للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه وأنه متمكن منه، فلا جرم أنه لا يأمر إلا بما ينافى الرحمة.. ولذلك اختير وصف الرحمن من بين صفات الله تعالى تنبيها علــى أن عبــادة الأصنام توجب غضب الله، فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حالــه فهــو جدير بألا يتبع[٩٥].

- الاستدلال بالإنذار:

رأينا من خلال النقاط السابقة كيف أقام إبراهيم عليه السلام الحجة العقليــة علــى أبيه، وكيف خاطبه ثانيا بدليل الفطرة والشعور والوجدان، وهو هنا يسلك مع أبيه مسلكا استدلاليا جديدا يعتمد على ما يسمى بفلسفة الإنذار والتسليم، والتــي تعنــي أن يتأمــل الإنسان في النذر التي بين يديه وتعرض عليه عرضا في الكتابين المسطور والمنظــور، وهذه النذر تحذر الإنسان من سوء عاقبة اختياراته الخاطئة، وتتوعــده بأخــذ العزيــز المقتدر إذا هو ضل وغوى، وتأمل العقلاء المنصفين في مثل هذه الإنــذارات المتكــررة والمتنوعة من شأنه أن يثير لديهم وفيهم غريزة حب النجاة من المهالــك والمخــاطر، وفطرة نشدان السلامة، ومن ثم يتوصلون إلى معرفة الله الذي بيــده وحــده تتحقــق الطمأنينة ويتم الخلاص. وعموما فإن الاستدلال بالإنذار مسلك من المسالك القرآنية في

(٩٣) تفسير القرآن العظيم، جــ٥، ص٢٢٩
(٩٤) في ظلال القرآن جــ٤، ص٢٣١٢.
(٩٥) التحرير والتنوير، جــ٨، ص١١٧.

التدليل على قضايا العقيدة وإقناع الناس بها. ويكفي أن نعلم- كما يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم- أنه: إذا كانت الآيات الأولى من سورة المدثر تبين الإنذار كنقطة البداية في الدعوة فإن وصف الرسول بالنذير البشير في آيات كثيرة من القرآن الكريم، يلقي الضوء على كون الإنذار هو من الناحية المنهجية أساس الدعوة وركيزتها"[٩٦] والخليل عليه السلام بما لديه من الهداية الربانية والوحي الإلهي ينذر أباه سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأوثان قائلا له ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ أي: على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فتكون للشيطان وليا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصر ولا مغيثٌ إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شئ، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك[٩٧]. ففي هذا الإنذار الموجه من الخليل لأبيه دعوة للتأمل حتى يكون ذلك دافعا لاستشعار العاقبة وسوء المصير المنتظر استشعارا عقليا ووجدانيا في الوقت نفسه، ومن ثم يحصل الفرار واللجوء إلى من بيده الأمر كله، والذي بيده مصير كل هذه الخلائق. وفوق أن هذا الإنذار الإبراهيمي فيه دعوة للتأمل فهو في الوقت نفسه يعكس صورة من صور الأدب لأبي الأنبياء ومراعاته لمقام العبودية بين يدي الحضرة الربانية. يستفاد ذلك من صياغة الإنذار بهذا الأسلوب ﴿إني أخاف﴾ فالتعبير بالخوف – هنا- الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يثبت أمرا فيما هو من تصرف الله. وإبقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان.[٩٨]

- **حسن الخطاب وتجنب التسفيه والازدراء**

تجدر الإشارة إلى أن حوار إبراهيم السابق مع أبيه قد انطوى على جملة من القيم الإيمانية والآداب الحوارية، وأنه قد ساق هذا الحوار مرتبا ترتيبا في غاية الحسن؛ لأنه وكما يقول الإمام الرازي: نبه أولا على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان، ثم أمره

(٩٦) العقيدة الإسلامية بين الفلسفة والعلم، ص٧٧.
(٩٧) تفسير القرآن العظيم، جـ٥، صـ ٢٢٩ـ٢٣٠
(٩٨) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١١٨.

باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي. ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونا باللطف والرفق فإن قوله في مقدمة كل كلام ﴿يا أبت﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله ﴿إني أخاف﴾ وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه(٩٩).

وهو في كل هذا يلتزم أدب الخطاب والجدال بالتي هي أحسن، ويتجنب الازدراء والتسفيه، أو التشهير والتنقيص من مقام من يحاوره، مما يسهم في إنجاح العملية الحوارية والارتفاع بها إلى مقام التعارف لا التدافع، والتحاور لا التنابذ، والتحاب لا التباغض، أو على الأقل تحييد الطرف الآخر وإلزامه بمقام الاحترام على الأقل. وهذه الآداب التي يعلمنا إياها الخليل في حواراته "لها من الآثار الطيبة التي تسهم في بلورة معطيات وأسس ناجعة لحوار يتسم بالانفتاح والقبول لدى كل الأطراف المتحاورة، وهذا الأسلوب أيضا في اللين والقول الحسن في الخطاب والمحاورة يتجلى في التأدب والصبر والحلم والتودد، والنصح والهدوء والرفق، في غير غلو ولا عناد ولا تعصب ولا تشدد، ولا تنطع ولا تطاول ولا كبر،وغيرها من الأساليب والطرق الحكيمة في آداب الحوار".(١٠٠)

- حلم الخليل وصبره في الله:

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ، وأورد كل ذلك مقرونا باللطف والرفق، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك(١٠١) حيث قابله بما يفيد الاستنكار والتهديد والوعيد قائلاً له

(٩٩) مفاتيح الغيب، جـ١٠، ص٤٧٠
(١٠٠) حوار الحضارات، ص٩٨.
(١٠١) مفاتيح الغيب، جـ١٠، ص٤٧١.

﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك وهو قوله ﴿لأرجمنك﴾ قاله ابن عباس وغيره.. وقوله ﴿واهجرني مليا﴾ يعني دهرا.. أو زمانا طويلا.. أو أبدا.. أو سويا سالما قبل أن تصبك مني عقوبة"[١٠٢].

وهكذا قابل الأب رفق الابن بالعنف، فلم يقل يا بني كما قال الابن يا أبت، وقابل وعظه بالسفاهة إذ هدده بالشتم أو بالضرب بالحجارة بقوله: لئن لم تنته لأرجمنك، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وتأسيه له بإبراهيم فيما كان يلقي من الأذى من قومه، ويقاسيه منهم ومن عمه أبي لهب من العنت والمكروه.[١٠٣]

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وذلك شأن الإيمان مع الكفر، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر.[١٠٤]

وقد جاء هذا الرد من أبيه على هذا النحو انطلاقا من موقع الشعور بسلطة الأبوة التي تضغط على الابن، ليسير على خطى أبيه وتهدده بالقوة والطرد والهجران إن خالف، فلا حوار ولا كلام بين الابن وبين أبيه، إنما هو الأمر والطاعة، فللأب أن يعلن عن رغبته بكل أمره، وللابن أن ينفذ دون تردد أو تفكير.. إنها شريعة المجتمع آنذاك التي تجعل من علاقة الآباء بأبنائهم علاقة تشبه العبودية [١٠٥]، عبودية حرر الإسلام أتباعه منها ومن غيرها مع مراعاة البر بالوالدين والعطف عليهم والإحسان إليهم.

---

(١٠٢) تفسير القرآن العظيم، جـ٥، صـ ٢٣٠
(١٠٣) تفسير المراغي جـ١٦، ص٥٧.
(١٠٤) في ظلال القرآن، جـ٤، ص٢٣١٢.
(١٠٥) الحوار في القرآن، ص٢٥٣.

إن القلب الذي امتلأ بالإيمان بالله تعالى يكون قلبا مطمئنا ثابتا واثقا، ويضفي هذا الإيمان على صاحب هذا القلب مسحة أخلاقية تمكن صاحبها من الصبر على الأذى وتحمل الشدائد في سبيل الله، وعدم مواجهة الجهالة بجهالة مثلها، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة، وأنبياء الله ورسله قدوة الخلق في هذا الشأن. وأبو الأنبياء عليه السلام ضرب لنا أروع الأمثلة في الصبر على المكاره وتحمل الشدائد ابتغاء مرضات الله تعالى، وانظر كيف استقبل إبراهيم هذه الثورة العاصفة المجنونة، وكيف رد هذا الحمق الجهول بتلك القولة الكريمة الحانية ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا﴾، سلام عليك: "فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد" [١٠٦]، أو "سلمت مني لا أصيبك بمكروه مالم أومر فيك بشئ، وهذا جواب الحليم للسفيه، وفيه توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة" [١٠٧]. إنها الكلمة الجديرة بأن تكون من خليل الرحمن الذي وصفه ربه سبحانه بقوله ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ هود: ٧٥، فما يكون هذا الحلم ولا تلك الوداعة ولا ذلك الرفق إلا من مثل هذا النبي الكريم الذي أدبه ربه أدبا رفعه به إلى مقام الخليل.[١٠٨]

ولم يقتصر الأمر على هذا الحلم والبر والإحسان، حيث أظهر الخليل حرصه على طلب الهدى والمغفرة من الله لأبيه فقال ﴿ سأستغفر لك ربي﴾أي : أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، إذ لم يكن إبراهيم تلقى نهيا من الله عن الاستغفار للمشرك[١٠٩]، أو استغفر له لأنه كان قد وعده أن يؤمن كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ التوبة ١١٤.[١١٠]

(١٠٦) في ظلال القرآن، جـ٥٤، ص٢٣١٢.
(١٠٧) تفسير المراغي، جـ١٦، ص٥٧.
(١٠٨) التفسير القرآني للقرآن، جـ٨، ص٧٤٠
(١٠٩) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١٢١.
(١١٠) تفسير المراغي، جـ١٦، ص٥٨.

• إعلان الولاء لله والبراءة من أهل الشرك:

لما هدد أبو إبراهيم ولده بالرجم وأمره بهجر الخلان وترك الأوطان لم يعز ذلك على نفس الخليل عليه السلام، وقدم لنا موقفا رائعا في تقرير أن الرابطة الحقيقية التي ينبغى أن تربط بين الناس هي رابطة العقيدة، وأن الولاء لله مقدم على الولاء لكل من سواه، فالأبوة والبنوة والعشيرة والقوم، والجماعة والوطن كل ذلك لا اعتبار له ولا ميزان ما دام بمنأى عن العقيدة وبعيدا عن منهج الله، وبذلك تتخلص النفوس المؤمنة من أي وشيجة غير وشيجة الإيمان ومن أي صلة غير صلة المودة في الله، فتحقيق الولاء لله ركيزة أساسية في البنيان العقدي الإسلامي، وركن من أركان قواعده الإيمانية. وهذا ما التزم به أبو الأنبياء وأعلنه على أبيه وقومه في جرأة ووضوح قائلا: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾ والمعني كما يقول ابن كثير: أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي: أي وأعبد ربي وحده لا شريك له، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا: وعسى هذه موجبة لا محالة فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.[١١١]

وهكذا أظهر إبراهيم العزم على اعتزال قومه وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذ كان في ذات الله تعالى[١١٢] وقد كان هذا الاعتزال من أبيه ومن قومه ومن آلهتهم التي يدعون من دون الله فرارا إلى الله وحده وولاء له لا غير، وفي هذا قمة الإيمان واليقين في الله جل شأنه.

• التوفيق بين مهمة الدعوة والجو العاطفي:

نستطيع من خلال النقاط السابقة أن نكتشف كيف وفق إبراهيم عليه السلام بين الرسالة والعاطفة فجعل العاطفة طريقا لرسالته وشعورا بالمسؤولية تجاه أبيه، لأن

(١١١) تفسير القرآن العظيم، جـ٥، صـ٢٣١.
(١١٢) التحرير والتنوير، جـ٨، ص١٢٢.

الموقف يتحول في هذا الجو إلى موقف إنقاذ، فكان رد الفعل لديه التوجه إلى أبيه بالسلام والوعد بالدعاء له بالمغفرة.. والإعلان له ولقومه بأنه سيعتزلهم وما يعبدون من دون الله بعد أن قام بواجبه تجاههم. وقد كان هذا الوعد من إبراهيم لأبيه بالاستغفار خاضعا للشعور بالأمل في تراجعه عن موقفه برجوعه إلى الله، وليس مرتكزا –في أي حال– على الشعور بأن القرابة تمثل امتيازا يميز أباه عن غيره، ولذا أعلن البراءة منه بعد وضوح موقفه تماما في اليأس من إيمانه وظهور عداوته لله.. وإننا في هذا المجال نستطيع الاستفادة من هذا الأسلوب في المواقف التي تواجهنا في دعوة الأشخاص الذين نرتبط بهم ببعض الروابط العاطفية من نسب وغيره، لنستفيد من أسلوب إبراهيم عليه السلام، كيف نشحن الحوار بالمشاعر العاطفية التي تسهل المهمة بما تثيره لديهم من الأحاسيس العاطفية من جهة، ومن الانسجام مع الأجواء الحميمة للحوار من جهة أخرى، من دون أن يخلق انجرافا مع العاطفة لمصلحة الكفر والضلال؛ لأن الأسلوب العاطفي في مثل هذا الأمر لا ينبع من حالة نفسية عفوية، بل يرتكز على تخطيط يعتبر العاطفة جزءا من الخطة العامة حيث يخضع لما تخضع له الخطة من مرونة ووعي وثبات.

وعلى ضوء هذا نجد أن من واجبنا إعطاء الأسلوب بعض القوة في حالات أخرى تقتضينا أن نواجه الآخرين بشدة، فيما إذا أرادوا استغلال الجانب العاطفي لأغراض في غير صالح الدعوة إلى الله.(١١٣)

(١١٣) الحوار في القرآن، ص٢٥٣-١٥٤.

المبحث الرابع
الجوانب العقدية والقيم الحوارية
في مجادلة إبراهيم لقومه

سجل القرآن أكثر من لقطة لحوار الخليل عليه السلام مع قومه ومجادلته لهم في عبادتهم للأصنام والأوثان والكواكب من دون الله عز وجل، وتارة يأتي هذا الحوار موجها لقومه بشكل عام كما ورد في سورة العنكبوت مثلا، وتارة يأتي موجها إلى أبيه وقومه معا كما ورد في سور: الأنعام – الأنبياء– الشعراء، وتنصب الدراسة – في هذا المبحث – على النموذج الحواري الوارد في سورة الأنعام الذي يبدأ بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الأنعام: ٧٤، لتعلقه بالإنكار على عبادة الأصنام من جهة، وإبطال العبودية للكواكب من جهة أخرى.

ومجادلة ابى الأنبياء لقومه هنا تؤكد دعوته إلى التوحيد وإنكاره على عباد الأصنام، كما تذكرنا بما أراه الله من ملكوت السماء والأرض وما توصل اليه عليه السلام من آيات التوحيد وبطلان الشرك وإقامة الحجة على قومه، ومن هنا فإن هذا النموذج الحواري للخليل مع أبيه وقومه يعالج نفس القضية التي أبرزتها السورة الكريمة وهي "بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وما بينهما من ارتباطات، ولكنه يعالجها في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة. يعالجها في أسلوب القصص والتعقيب عليه مع استصحاب المؤثرات الموحية التي تزخر بها السورة".[١١٤]والآية الأولى في هذا الحوار معطوفة على الآيات التي قبلها والتي أولاها قوله سبحانه (وكذب به قومك وهو الحق)الأنعام:٦٦ المشتملة على الحجج والمجادلة في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك، فعقبت تلك الحجج بشاهد من أحوال

(١١٤) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٣٦.

الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجة الدامغة والمناظرة الساطعة، ولأنها أعدل حجة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه وقومه، وكانت أكبر حجة على المشركين من العرب بأن أباهم لم يكن مشركا ولا مقرا للشرك في قومه، وأعظم حجة للرسول ﷺ إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك.(١١٥)

ويمكننا رصد الجوانب العقدية والقيم الحوارية التي تضمنها هذا النموذج على النحو التالي:

- الإنكار على عبادة الأصنام:

ظاهر الآية الأولى في هذا النموذج الحواري يفيد أن آزر أبو إبراهيم عليه السلام... ومع أنه ليس من عادة القرآن التعرض لذكر أسماء غير الأنبياء فقد ذكر اسمه هنا حكاية لخطاب إبراهيم إياه خطاب غلظة فذلك مقتضى ذكر اسمه العلم(١١٦)، وبعيدا عن الخلاف الدائر بين المؤرخين والمفسرين وغيرهم حول شخصية آزر واسمه هل هو أبو الخليل أم عمه؟ وهل هو آزر أم تارخ كما ورد في التوراة؟ فإن المقصود من هذه الآية "أن إبراهيم عليه السلام وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها فلم ينته"(١١٧).

والاستفهام في قوله ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ استفهام إنكار وتوبيخ، والظاهر أن المحكي في هذه الآية موقف من مواقف إبراهيم مع أبيه وهو موقف غلظة، فيتعين أنه كان عندما أظهر أبوه تصلبا في الشرك.. ومعنى تتخذ هنا تصطفي وتختار، فالمراد أتعبد أصناما. وفي فعل "تتخذ" إشعار بأن ذلك شيء مصطنع مفتعل وأن الأصنام ليست أهلا للإلهية، وفي ذلك تعريض لسخافة عقله أن يجعل إلهه شيئا هو صنعه(١١٨). وقوله ﴿أصناما آلهة﴾ أي : أتتأله لصنم تعبده من دون الله، ﴿إني أراك وقومك ﴾ أي :

(١١٥) الإمام ابن عاشور، التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣١٠.
(١١٦) المرجع السابق، جـ٦، ص٣١٢.
(١١٧) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٨٣، القاهرة ط دار الشعب،بدون – ت.
(١١٨) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣١٢-٣١٣.

السالكين مسلكك ﴿في ضلال مبين﴾، أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيــرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح[١١٩].

● مواجهة حاسمة لاتتنافى مع الأدب:

هذه الوقفة الحازمة والمواجهة الحاسمة من الخليل لأبيه وقومــه ووصــفه لهــم بالضلال الواضح البين، تدل على جرأته عليه السلام في الحق وأن آصرة العقيدة لديــه أولى من كل رابطة دنيوية فقط، وأن قوة الإيمان والثقة بالله جعلته يــصدع بــالحق ولا يخشى في الله لومة لائم ولا يجامل على حساب دينه أبا ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوما. وهذه الوقفة الحاسمة من الخليل ووصفه لأبيه وقومه بالضلال لا يدلان على سوء أدب منه عليه السلام تجاه أبيه على وجه الخصوص، وبالتالي فالوصف بالضلال "ليس فيــه سب ولا جفاء ولا غلظة كما زعم البعض ممن استشكله من الولد للوالد. وقابل هــؤلاء بين صنيع الخليل مع أبيه هنا وبين أمر الله تعالى لموسى وهارون – عليهما السلام– أن يقولا لفرعون قولا لينا"[١٢٠].

ويمكن الإجابة على ذلك من عدة وجوه منها:

(أ) إن مباشرته إياه بهذا القول الغليظ كانت في بعض مجادلاته لأبيه بعد أن تقدم له بالدعوة بالرفق كما حكى الله عنه في الحوار الدائر بينهما في سورة مريم [١١٩]. فلما رأى تصميمه على الكفر سلك معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعل بعــضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض، فإن للنفوس مــسالك ولمجــال أنظارهــا ميــادين متفاوتة[١٢١].

---

(١١٨) تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٨٣.
(١١٩) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٥٤.
(١٢٠) راجع الآيات من ٤٢: ٤٨ ومظاهر هذا الرفق في المبحث السابق.
(١٢١) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣١٤.

(ب) إن هذا الأسلوب الذي خاطب به إبراهيم عليه السلام أباه قد يكون حسنا للمصلحة كالشدة في تربية الأولاد أحيانا.. فالصواب أن التعبير بالضلال البين هنا بيان للواقع باللفظ الذي يدل عليه لغة، كقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ الضحى: ٧، فوصف إبراهيم لأبيه وقومه بالضلال بين ظاهر لا شبهة فيه، فكأنه يقول لهم: إن هذه الأصنام التي اتخذتموها آلهة لكم لم تكن آلهة في أنفسها، بل باتخاذكم وجعلكم، ولستم من خلقها وصنعها بل هي من صنعكم ولا تقدر على نفعكم وضركم[١٢٢].

(ج) ليس في خطاب الخليل لأبيه على هذا النحو الذي مر بنا ما ينافي البر بأبيه، لأن المجاهرة بالحق دون سب ولا اعتداء لا تنافى البرور، ولم يزل العلماء يخطئون أساتذتهم وأئمتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص[١٢٣].

● تأييد الله لإبراهيم:

في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام :٧٥، تتجلى رحمة الله بعبده إبراهيم وتأييده له عليه السلام، ومن مظاهر ذلك أن الله عز وجل أراه ملك السموات والأرض، وأطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، وكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ووصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب. لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة المزيفة إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق.[١٢٤]

وهكذا فإن معنى إراءة الحق عز وجل ملكوت السموات والأرض للخليل هو : نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.[١٢٥]

---

(١٢٢) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٥٤.
(١٢٣) التحرير والتنوير،ج٧،ص٣١٤.
(١٢٤) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٣٩.
(١٢٥) تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٨٤.

فالرؤية هنا رؤية بصرية تتبعها رؤية البـصيرة العقليـة[١٢٦]، وهـي مـستعملة للانكشاف والمعرفة، فالإراءة بمعنى الكشف والتعريف تشمل المبـصرات والمعقـولات المستدل بجميعها على الحق وهي إراءة إلهام وتوفيق[١٢٧].

كل ذلك ليكون الخليل من الموقنين أي: نريه ملكوت الـسموات والأرض ليعـرف سننا في خلقنا، وحكمنا في تدبير ملكنا،وآياتنا الدالة على ربوبيتنا وألوهيتنا، ليقيم بهـا الحجة على المشركين الضالين، وليكون في خاصة نفسه مـن الـواقفين علـى عـين اليقين.[١٢٨]

• الخليل مناظر لا ناظر:

إن الإنسان الذي تشغل باله قضايا عقيدته وتملأ عليه أركان فكره يعيش مهمومـا بها، مهتما بنصرتها ورفع لوائها، وقد كان أبو الأنبياء عليه الـسلام رائـدا فـي هـذا المجال،ومن هنا فقد كان لا يترك فرصة إلا ويحاور قومه ويجادلهم فيما هم عليه مـن باطل وما يعبدونه من آلهة مزيفة، ومن ذلك تلك المحاورة التي معنا والتي أراد الخليـل من خلالها بيان بطلان عبادة الكواكب بعد أن وجه هذا اللوم العنيف لأبيه وقومـه فـي بداية هذا النموذج الحواري.

ولقد أثمرت إراءة الله للخليل ملكوت السموات والأرض هدايته أو توصـله عليـه السلام "إلى طريق عجيب في إبكات لقومه ملجئ إياهم للاعتراف بفساد معتقـدهم"[١٢٩] تمثل ذلك فيما حكاه الحق سبحانه بقوله:﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربـي فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ الأنعام:٧٦، وجن عليه الليل أي : تغشاه وستره، ويبدو أنه عليه السلام كان سائرا مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب.

(١٢٦) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٥٤.
(١٢٧) التحرير والتنوير، جـ٧ ص٣١٥.
(١٢٨) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٥٦.
(١٢٩) التحرير والتنوير جـ٧، ص٣١٧.

وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصورون لها أصناما، وتلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم.[١٣٠]

﴿قال هذا ربي﴾ أي: مولاي ومدبر أمري[١٣١]، لكن هل صدر هذا الكلام بهذا المعنى المتقدم على جهة الاعتقاد من الخليل بربوبية الكواكب؟ ويكون بذلك ناظرا متأملا متدرجا من الباطل إلى الحق، أم أنه كان مناظرا لقومه غير معتقد بربوبيتها على الحقيقية؟

اختلف العلماء في مراد أبي الأنبياء بهذا الاستدلال البديع فقيل: "إنه قال ذلك في مقام النظر والاستدلال لنفسه، وقيل: في مقام المناظرة والحجاج لقومه. واعتمد من قال بالأول على ما روى في التفسير المأثور من عبادته عليه الصلاة والسلام لهذه الكواكب في صغره اتباعا لقومه حتى أراه الله تعالى بعد كمال التمييز حجته على بطلان عبادتها، والاستدلال بأفولها وتعددها وغير ذلك من صفاتها على توحيد خالقها، وإن ذلك كله كان قبل النبوة ودعوتها"[١٣٢].

وقد ساق الإمام الرازي في تفسيره اثنتي عشرة حجة على بطلان ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول ثم عقب بقوله "فثبت بهذه الدلائل الظاهرة أنه لا يجوز أن يقال إن إبراهيم عليه السلام قال على سبيل الجزم: هذا ربي"[١٣٣] أما الجمهور فقد ذهب إلى الرأي الثاني، وهذا ما نعتقده ونميل إليه ونقول مع الإمام ابن كثير: "والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام"[١٣٤]. وهذا هو الرأي الذي يتفق مع عصمة الخليل عليه السلام ومعرفته بربه معرفة لا يعتريها شك أو يداخلها وهم. فمن أعرف بالله من أنبيائه

---

(١٣٠) التحرير والتنوير، جـ٧،ص٣١٧.
(١٣١) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٥٧.
(١٣٢) المرجع السابق، جـ٧، ص٥٥٧.
(١٣٣) مفاتيح الغيب، جـ٦، ص٣٩٤.
(١٣٤) تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٨٥

ورسله؟ وبناء على ذلك يكون المراد من قول إبراهيم عليه السلام ﴿هذا ربي﴾ أنه "قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم فأظهر أنه موافق لهم ليهشوا إلى ذلك، ثم يكر عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق".(١٣٥)

وهناك أوجه أخرى لتوضيح المراد من قوله عليه السلام ﴿هذا ربي﴾ ذكرها الإمام الرازي لا نحب أن نطيل المقام بذكرها فليرجع إليها من شاء.(١٣٦)

- بطلان ألوهية الكوكب:

بعد أن جارى الخليل قومه في اعتقادهم الكاذب بربوبية الكوكب الذي رآه، قدم لهم الدليل على بطلان ما يعتقدون ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ أي : فلما غرب هذا الكوكب واحتجب قال لا أحب من يغيب ويحتجب.. وأشار بقوله ﴿الآفلين﴾ إلى أن هذا الكوكب فرد من أفراد جنس كله يغيب ويأفل.(١٣٧)

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الألوهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده، فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على الناس.(١٣٨)

وفي هذا المسلك الاستدلالي أسلوب حكيم اختاره أبو الأنبياء ينبغي علينا مراعاته في حواراتنا مع الآخرين، فهو لم يحقر معبودا تهم ويسفه معتقداتهم في بادئ أمره فينفروا منه ويخاصموه ويصموا آذانهم عن سماع دعوته وقبول حجته، بل جاراهم في معتقداتهم لينال ثقتهم وليكون لكلامه وقع في نفوسهم، يستطيع به بعد ذلك أن ينفذ إلى قلوبهم ويبين موضع الخطأ في معتقداتهم على النحو المشار إليه آنفا. فلا حرج إذن من

(١٣٥) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣١٩.
(١٣٦) مفاتيح الغيب، جـ٦، ص٣٩٤، وما بعدها.
(١٣٧) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٥٨.
(١٣٨) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣٢٠.

الإقرار أو الاعتراف بالباطل في مجادلاتنا وحواراتنا مع الخصوم لأنه "إذا كانت القضية إظهارا للاعتراف بالباطل لانتزاع الإقرار ببطلانه من قبل المبطلين فلا بأس بذلك، لأن الموقف يكون على هذا الأساس في مصلحة الحق من جهة، كما يعتبر طريقة ذكية في إظهار بطلان الباطل من موقع الباطل" من جهة ثانية[١٣٩].

- إبطال ربوبية القمر:

لما أبطل الخليل ربوبية الكوكب بالاستدلال الذي قدمه سابقا عمد إلى إبطال ربوبية القمر الذي هو أشد نورا من الكوكب، مستخدما القياس في الإثبات والنفي ليستدل على عدم ربوبية هذه الكواكب ﴿فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي﴾ أي: فلما رأى القمر طالعا من وراء الأفق أول طلوعه قال: هذا ربي.[١٤٠] قالها على جهة الإلزام لا الالتزام ليتوصل من خلال ذلك لإبطال مذهب قومه وإثبات عدم صلاحية الكواكب للربوبية أو العبادة. ﴿فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ وقد قصد الخليل من وراء ذلك تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك[١٤١]، فقد غاب القمر وهو الأكبر منظرا والأبهى نورا كما غاب الكوكب، واعتورهما النقص بسبب ذلك المغيب، والنقص محال على الإله الذي له الكمال كله. وبعد أن لفت الخليل أنظار قومه إلى نقص الأرباب التي يتخذونها من دون الله وعدم صلاحيتها لمقام الألوهية عرض بهم مرة ثانية، بعد أن عرض بهم في الدليل الأول عندما قال ﴿لا أحب الآفلين﴾. قال ابن المنير في الانتصاف: "والتعريض بضلالهم ثانيا أصرح وأقوى من قوله لا أحب الآفلين، وإنما ترقى في ذلك لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأيسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة إلا بعد

(١٣٩) الحوار في القرآن، ص٦١.
(١٤٠) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٦٠.
(١٤١) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣٢١.

أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره"[١٤٢] فقوله ﴿ لأكونن من القوم الضالين﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالا، ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، وقال: لأكونن من القوم الضالين" ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه.[١٤٣]

كما عرض الخليل أيضا في هذا الدليل الذي يواجه به قومه ومعتقدهم الفاسد بأن له ربا يهديه، وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب، وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب[١٤٤].

وجملة ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ بما فيها من تعريض بأن للخليل ربا معبودا هو المقصود وحده بطلب الهداية يؤكد ما رجحناه من قبل من أن إبراهيم عليه السلام كان مناظرا لقومه لا ناظرا بعقله يتردد بين الشك والحيرة، ويتقلب بين عدة أرباب ليصل إلى الرب الحقيقي في النهاية. فالعجب كل العجب – كما يقول الشهرستاني – : ممن لا يعرف له ربا كيف يقول: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فرؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون في مدارج البداية؟[١٤٥].

- فساد الاعتقاد بألوهية الشمس:

الدليل الثالث الذي احتج به أبو الأنبياء في هذا النموذج الحواري يتمثل في قوله تعالى ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي﴾ أي: هذا المنير الطالع ربي[١٤٦]. وقوله ﴿هذا ربي﴾ مجاراة لقومه واستدراج لهم، فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام

(١٤٢) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٦١.
(١٤٣) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣٢١-٣٢٢.
(١٤٤) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣٢١-٣٢٢.
(١٤٥) الملل والنحل، جـ٢، ص٥٣. بيروت ط دار المعرفة /١٩٧٥
(١٤٦) تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٨٥.

على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج[١٤٧]. أما قوله ﴿هذا أكبر﴾ فالمراد منـــه: أكبر الكواكب جرما وأقواها قوة فكان أولى بالإلهية[١٤٨]. وكـــان قـــوم ســـيدنا إبـــراهيم يعتقدون "أن الشمس ملك الفلك وهو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار ويقبلون منه الآثار"[١٤٩].

ووصف الخليل للشمس بأنها أكبر فيه "تأكيد لإظهار النصفة للقوم، ومبالغة في تلك المجاراة الظاهرة لهم، وتمهيد قوي لإقامة الحجة البالغة عليهم، واســـتدراج لهـــم إلـــى التمادي في الاستماع بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى أن يصدهم عنه".[١٥٠]

وجملة هذا أكبر جارية مجرى العلة لجملة هذا ربي المقتضية نقص ربوبية الكوكب والقمر، وحصر الربوبية في الشمس ونفيها عن الكوكب والقمر، ولذلك حذف المفـــضل عليه لظهوره، أي هو أكبر منهما، يعني أن الأكبر الأكثـــر إضـــاءة أولـــى باســـتحقاق الإلهية.[١٥١]

لكن هذا الرب الأكبر من الكوكب ومن القمر لا يستحق أن يكون إلها لأنه لحقه ما لحق بما هو أصغر منه وهو الأفول المنافي للكمال ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني برئ ممـــا تشركون﴾ أي : فلما أفلت كما أفل غيرها، واحتجب ضوءها المشرق وذهب ســـلطانها، وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر، صرح عليـــه الـــصلاة والسلام بالنتيجة المرادة من ذلك التعريض، فتبرأ من شرك قومه، الذي أظهر مجاراتهم عليه[١٥٢] في حواره معهم ومجادلته إياهم.

(١٤٧) الملل والنحل، جـ٢،، ص٥٣.
(١٤٨) مفاتيح الغيب ، جـ٦، ص٤٠٤.
(١٤٩) الملل والنحل، جـ٢، ص٥٣.
(١٥٠) تفسير المنار ÷ جـ٧، ص٥٦٢.
(١٥١) التحرير والتنوير، جـ٧، ص٣٢٢.
(١٥٢) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٦٢.

وقد كان كافيا في حق الخليل أن يقوم بإبطال إلهية الشمس فيثبت ويتحقق بطلان ربوبية ما سواها أو ما دونها. لكن الخليل آثر أن يقدم لقومه ثلاثة أدلة متدرجة على النحو المتقدم، وذلك لأن: "الأخذ من الأدون فالأدون مترقيا إلى الأعلى فالأعلى له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد لا يحصل من غيره، فكان ذكره على هذا الوجه أولى"(١٥٣) وبالتالي بدأ بنقض ربوبية الكوكب ثم ثنى بإبطال كون القمر ربا معبودا، ثم ختم ببيان فساد إلهية الشمس ليقيم الحجة على قومه ويسد المنافذ كلها على خصمه.

- دلالة الخلق تنفى الألوهية عما سوى الله

الأدلة الثلاثة السابقة قدمها الخليل على جهة الإلزام لقومه والمجاراة لهم في معتقداتهم الباطلة دون التزام منه ﷺ بمضمون هذه العقائد الفاسدة. ثم ساق الخليل بعد ذلك في حواره مع قومه دليلا رابعا مسوقا على جهة الإلزام والالتزام معا، وهو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ وهو هنا يعلن وجهته الحقة بعد أن أعلن في نهاية الدليل الثالث (المفاصلة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة، وبعد أن تبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك – وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة، ولكنهم كانوا يشركون مع الله هذه الأرباب الزائفة"(١٥٤) فأعلن الخليل توجهه إلى الواحد الأحد، وقفى على تلك البراءة ببيان عقيدته الحقة وهي التوحيد الخالص فقال إني وجهت وجهي وقصدي وجعلت توجهي في عبادتي لربي الذي فطر السموات والأرض، أي ابتدأ خلقهما، فهو خالق هذه الكواكب النيرات، وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من معدن ونبات.(١٥٥)

(١٥٣) مفاتيح الغيب، جـ٦، ص٤٠٤.
(١٥٤) راجع في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٤١.
(١٥٥) انظر تفسير المنار ج ٧ ص٥٦٣

وقد اعتمد الخليل في هذا الدليل على خاصية الخلق بمعنى الإبداع والإيجاد من لا شيء، وهي التي ينفرد بها الله تعالى فهو وحده الخالق وكل ما عداه مخلوق، فأراد الخليل لفت أنظار قومه إلى بطلان عبادتهم للكواكب لأنها مخلوقة وليست بخالقة، وعلى هذا فإن "التعبير بفاطر السموات والأرض هو وجه الحجة في الآية، فإن ما فتن به القوم من تأثير النيرات في الأرض – إن صح– لم يعدُ أن يكون خاصية لبعض أجرام السماء وهي لم توجد نفسها ولا صفاتها ولا خواصها، فالواجب أن ينظر في أمرها من حيث هي جزء أو أجزاء من مجموع العالم، وحينئذ يراها الناظر المتفكر خاضعة لتدبير من فطر العالم الكبير التي هي بعضه، ويعلم أنه هو الحقيق بالعبادة من دونها لأنه هو الرب الحق المدبر لها ولغيرها"(١٥٦).

- الآلهة لا تملك نفعا ولا ضرا:

بعد أن قام إبراهيم عليه السلام ببيان بطلان ربوبية الكواكب وفساد عبادة الأصنام، وبعد أن أعلن براءته من الشرك الذي وقع فيه قومه، وتوجهه في الوقت نفسه إلى الواحد الأحد مسلما له وجهه ومستسلما له بذاتيته كلها، جاءه قومه "ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين، وفيما انشرح له صدره من توحيد، وليخوفوه آلهتهم التي تنكر لها أن تنزل به سوءا"(١٥٧)

وهذا ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان عندما يعجزون عن مواجهة الحق وأدلته القوية وبراهينه الساطعة، يلجئون إلى التمويه والخداع تارة، أو تخويف أهل الحق من بطشهم وبطش ما يدعون من آلهة مزيفة تارة أخرى، أو ينزلون العقاب البدني أو المالي أو هما معا بدعاة الحق. "وحاجه قومه" حاجوه ببيان أوهامهم في شركهم، لكن القرآن الكريم لم يذكر لنا هنا ما قاله قومه له، بل اكتفى بذكر موقفهم ومحاجتهم له،

---

(١٥٦) المرجع السابق، جـ٧، ص٥٦٤.
(١٥٧) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٤١.

ولعل السبب في ذلك هو أن وجهة نظرهم معروفة من خلال الجواب، أو من جهة وضوح فكرة الشرك بوجه عام مما تعرض له القرآن الكريم في قصة إبراهيم في سور متعددة[١٥٨]. والمهم أن هؤلاء القوم جادلوا الخليل عليه السلام وخاصموه في أمر التوحيد الذي قرره لهم، فجاء رده عليه السلام متمثلا في قوله تعالى: ﴿قال أتحاجوني في الله وقد هدان، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون"، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة "أنهم لما لم يجدوا حجة عقلية على شركهم بالله خوفوه أن تمسه آلهتهم بسوء"[١٥٩]وعلى هذا فإن المشركين قد واجهوا الخليل بأسلوب التخويف من القوة التي تملكها أصنامهم أو يتمتع بها شركاؤهم، فأرادوا منه أن يكف عن أسلوب التحدي للأصنام والشركاء ولعقيدتهم بشكل عام بحجة الخوف عليه من انتقام هؤلاء الآلهة الذين يعتقدون بقدرتهم على الإساءة لمن يتحداهم.[١٦٠]

لكن إبراهيم عليه السلام الذي قوي يقينه بالله وعظمت ثقته في مولاه وملأت العقيدة أركان قلبه واجههم مستنكرا في كل ثبات وطمأنينة ﴿أتحاجوني في الله وقد هدان﴾ وأعلن في جرأة ويقين عدم خوفه من بطشهم ولا قوة آلهتهم المزعومة ﴿ولا أخاف ما تشركون به" وكيف يخاف من وجد الله؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف؟ وكل قوة – غير قوة الله– هزيلة، وكل سلطان غير سلطان الله لا يُخاف)[١٦١] والخليل عليه السلام يعلم علم اليقين أن ما يشرك به قومه من الكواكب والأصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تقرب ولا تشفع.[١٦٢]

ولكن إبراهيم عليه السلام في عمق إيمانه واستسلام وجدانه لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكنا إلى مشيئة الله الطليقة وإلى علم الله الشامل: ﴿إلا أن يشاء ربي شيئا

---

(١٥٨) الحوار في القرآن، ص٢٤٩.
(١٥٩) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٧٤.
(١٦٠) الحوار في القرآن، ص٢٤٩–٢٥٠.
(١٦١) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٤٢.
(١٦٢) تفسير المنار جـ٧، ص٥٣٥.

وسع ربي كل شيء علما﴾ فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته، ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئا، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته. ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله ووسعه علمه الذي يسع كل شيء.(١٦٣)

ثم بدأ الخليل بعد ذلك مناقشة قومه في حقيقة الخوف والأمن، موازنا بين الخوف الحقيقي والخوف الزائف ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا﴾ أي : وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندا له وهو لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر، ولا تخافون أنتم إشراككم بالله خالقكم ما لم ينزل به عليكم حجة بينة بالوحي ولا بنظر العقل تثبت لكم جعله شريكا له في الخلق والتدبير، أو في الوساطة والشفاعة والتأثير. فافتياتكم على خالقكم الذي بيده الضر والنفع بهذه الموبقة العظيمة هو الذي يجب أن يخاف ويتقي(١٦٤).

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود. إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم، وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق، وكيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطانا ولا قوة من الأشياء والأحياء؟ وأي الفريقين أحق بالأمن؟(١٦٥)

ثم رتب على هذا الإنكار التعجبي ما هو نتيجة له بقوله: ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ فهو يقول لهم: أي هذين الفريقين- الموحدين والمشركين- أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته؟ ونكتة عدوله عن قول: فأينا أحق بالأمن إلى قوله ﴿فأي الفريقين﴾ هي بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك.. فهي متضمنة لعلة الأمن، وقيل إن نكتته الاحتراز عن تزكية النفس.. ثم قال ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أيهما أحق بالأمن، أو إن كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر فأخبروني

(١٦٣) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٤٢.
(١٦٤) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٧٧.
(١٦٥) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٤٢.

بذلك وبينوه بالدلائل، وهذا إلجاء إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحماقة والجهل.[١٦٦]

هنا يأتي الجواب ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجة قومه التي جاؤوا بها يجادلونه.. فلما واجههم إبراهيم بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة.. لما واجههم بهذه الحجة التي آتاه الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة.. وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفا في هذا بحكمته وعلمه ﴿إن ربك حكيم عليم﴾[١٦٧].

- مجابهة الانهزام النفسي:

إذا كانت الفكرة الأساسية في هذا النموذج الحواري بين الخليل وأبيه وقومه تعيش في نطاق فكرة الشرك والتوحيد، بين فريقي المؤمنين والمشركين فإن بإمكاننا الاستفادة منها في نطاق الواقع الذي تعيشه قوى الإيمان وقوى الكفر والضلال، عندما تتحرك الأساليب الانهزامية لتخذل المؤمنين في مسيرتهم نحو الدعوة إلى الإيمان، بحجة الخوف عليهم من قوى الكفر والضلال التي تملك كل عناصر القوة المادية، بينما لا يملك المؤمنون منها أي شيء، مما يوجب اهتزاز الموقف وضعف المعنويات الذي يؤدي – بالنتيجة– إلى الشلل التام عن العمل.. إننا قد نحتاج إلى الأسلوب الذي مارسه إبراهيم النبي في حواره مع قومه، عندما أثاروا معه مشكلة الأمن والخوف.. ليعيد المؤمنين إلى

---

(١٦٦) تفسير المنار، جـ٧، ص٥٧٩.
(١٦٧) في ظلال القرآن، جـ٢، ص١١٤٢.

إيمانهم العميق الذي يرتبط بالشعور بقوة الله أمام كل قوة أخرى، وليجعلهم يواجهــون قوى الانهزام بما واجه به إبراهيم قومه في معركة الصمود والثبات.(١٦٨)

(١٦٨) الحوار في القرآن، ص٢٥٠-٢٥١.

الخاتمة

بعد هذا العرض لأهم الجوانب العقدية والقيم الحوارية في طرف مـن مجـادلات الخليل عليه السلام، نكون قد أتينا على ما قصدناه من هذه الدراسة، سائلا الحق جل في علاه أن تكون قد تأيدت بالتوفيق والسداد، وأن تكون خالصة لوجهه الكريم. وفيما يلـي تعريج على أهم النتائج والتوصيات :

- يعتبر الحوار ركيزة أساسية من ركائز المنهج القرآنى في الاستدلال على قضايا العقيدة، استخدمه القرآن مصدرا للتوجيه والوعظ، ووسيلة لتثبيت الإيمان فـي القلوب وربطها بخالقها، وأداة لإيقاظ العقول وحثها على النظر والتفكر للوصول إلى الحق والالتزام به عن بينة واقتناع.
- من الجوانب العقدية التي انطوت عليها مناظرات الخليل – في النماذج الـسابقة – تعريف الله إلى عباده من خلال أفعاله التي لايقدر عليهـا سـواه كالإحيـاء والإماتة، وأيضا الاستدلال على وجوده تعالى من خلال آثاره في الكـون مـن حولنا التي يعجز البشر – وغيرهم – عن تصريفها وتـسخيرها وتـسييرها، بالإضافة إلى إبطال عبادة الكواكب وإقامة الدليل على فساد ربوبيتهـا لتغيرهـا وأفولها مما يلحق بها النقص الذي يتنزه عنه الإله الحق، وأخيرا نقض عبـادة الأصنام والتحذير من اتباع الشيطان، وإقامة الحجة الدامغة على بطلان ألوهيتها لفقدانها السمع والبصر والنفع والضر لنفسها فضلا عن غيرها.
- وتجلت في النماذج الحوارية الإبراهيمية بعض القيم الإيمانية الآتية:

أ – اليقين الدائم بالله والثقة التامة بنصر الله يعينان المسلم ويدفعانه إلى الجرأة في الحق ومواجهة أهل الباطل مهما كانت مناصبهم ومنازلهم.

ب – عدم الاغترار بالنعمة وحسبانها مزيد فضل وإكرام من المنعم للمنعم عليـــه، فالعطاء الإلهى امتحان كما أن الحرمان اختبار، لذا وجب شـــكر المـــنعم علـــى عطيته وتصريفها فيما يرضيه عز وجل.

ج – الإيقان بأن أهل الإيمان وحدهم يتمتعون بالأمن الحقيقي، بينما حزب الشيطان مهما تكبروا وتجبروا وعلوا في الأرض فلا نصيب لهم في هذا الأمن الحقيقـــي الذي يجعل الحياة حياة طيبة بالمفهوم القرآني.

د – تسلية الدعاة والمصلحين بتذكيرهم باستمرار الصراع بين الحق والباطل حتى يستعدوا لذلك ويصبروا على متاعب الطريق.

هـــ – ينبغى لصاحب العقيدة الحقة أن تملأ عليه هذه العقيدة أركان قلبه وجوانـــب حياته كلها، حتى تصير شغله الشاغل وهمه الأكبر، وبالتالي يصير ولاؤه لهـــا مقدما على الولاء للأهل والعشيرة وكل ماتهواه النفس، كما تجسد ذلـــك بكـــل وضوح في مواقف الخليل مع النمرود وأبيه وقومه.

- وكشفت لنا مجادلات الخليل السابقة عن طرف من آداب الحوار وقيمه من بينها:

أ – شرعية استخدام الجدل والمناظرة في الدفاع عن الحق وإبطال الباطل.

ب – حسن الأدب في الحوار مع الخصوم بتجنب التـــسفيه والازدراء للأشـــخاص والآراء.

ج – لامانع من الشدة في القول مع من نجادلهم بشرط ألا يتنافى ذلـــك مـــع أدب الحوار.

د - أهل الباطل في كل زمان ومكان - لـضعف بـاطلهم - يموهـون الحقـائق ويلبسون الحق بالباطل، وعلينا ألا ننخدع بذلك أو نغتر به، بل يجـب علينـا كشف ألاعيبهم واللجوء إلى ماهو واضح وجلى في الاستدلال.

هـ - عدم الشعور بالهزيمة النفسية أمام قوة من نحاورهم المادية أو المعنويـة، وعدم الرضوخ لتخويفهم لنا وإرهابهم إيانا، لأننا نملك مـالا يملكـون ((ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)) آل عمران: ١٣٩

- الخلفية العقدية للنماذج الحوارية السابقة وطريقة عرضها لقضايا العقيدة وقـيم الإيمان يجعلنا نكرر النداء مع من سبقونا ونوصى بضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم واستلهام منهجه في تقرير قضايا العقيدة وكيفية عرضها على المخاطبين بالوحى ومخاطبتهم بها، وألا يقتصر الأمر في ذلك على كتب المتكلمـين التـي توغلت في المباحث العقدية من وجهة نظرية افتراضية تعتمد علـى المـنهج العقلى في غير صلة تذكر بآثار هذه العقيدة في حياة أصحابها ولا زيادة إيمانهم بها.

المراجع

القرآن الكريم :

- الإمام ابن جرير الطبرى، تاريخ الطبري، مصر، ط دار المعارف السادسة.
- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق/ عبد السلام هارون، القاهرة ط مكتبة الخانجي ١٩٨١م
- ابن كثير : إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية،. بيروت ط دار ابن كثير، وأيضا: تفسير القرآن العظيم،القاهرة،ط دار الشعب.
- ابن منظور:محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت ط دار صادر.
- الشيخ/أحمد رضا، معجم متن اللغة، بيروت، ط دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠م.
- الشيخ أحمد مصطفى المراغي/ تفسير المراغي، القاهرة ط الحلبي، ١٩٧٢م.
- د. جميل صليبا/ المعجم الفلسفي، بيروت ط دار الكتاب اللبناني، ١٩٧١م.
- د. حسن الشرقاوي، الجدل في القرآن الكريم،. الإسكندرية ط منشأة المعارف.
- د. حسن الصفار، الحوار والانفتاح على الآخر، بيروت، ط دار الهادى ٢٠٠٤
- د. حمد بن إبراهيم العثمان، أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، ط مكتبة ابن القيم، ٢٠٠١م.
- الإمام الرازى، مفاتيح الغيب، المنصورة ط مكتبة الإيمان، ١٩٩٢م
- الراغب الأصفهانى، المفردات في غريب القرآن، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، بيروت ط دار المعرفة
- د. زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن. بدون ط – ت

- الشهيد/ سيد قطب،في ظلال القرآن، القاهرة، ط دار الشروق، ١٩٧٧م..
- د. سيد محمد ساداتي ركائز الإعلام في دعوة إبراهيم عليه السلام، الرياض ط دار عالم الكتب، ١٩٩٤م.
- الإمام الشهرستانى، الملل والنحل. بيروت ط دار المعرفة /١٩٧٥
- الشيخ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، ط الدار التونسية للنشر.
- الإمام ابن جرير الطبرى، تاريخ الطبري. مصر، ط دار المعارف السادسة.
- د / عبد الرحمن حسن الميدانى، العقيدة الإسلامية وأسسها، دمشق ط دار القلم، ١٩٩٤م.
- د. عبدا لرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دمشق،ط دار الفكر، ١٩٩٦.
- د. عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش ، القاهرة ط دار الشروق ١٩٩٨م.
- د. عبد الغني عبود، العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة، القاهرة ط دار الفكر العربي ١٩٧٦.
- عبد الله علي العليان، حوار الحضارات، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤م.
- عفيفى عبد الفتاح طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، بيروت ط دار العلم للملايين الخامسة
- الإمام / القرطبي: محمد بن أحمد الأنصارى،الجامع لأحكام القرآن، بيروت ط دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م

- الشيخ محمد بن صالح العثيميين، شرح العقيدة الواسطية، الرياض،ط دار الثريا ٢٠٠٠م.
- محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٥م.
- الشيخ/ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، بيروت ط دار المعرفة للطباعة والنشر
- الإمام/محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة، ط دار الشروق ١٩٨٣م.
- مقداد يالجن، تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية. ، السعودية ط دار عالم الكتب، ٢٠٠٤م
- د. يحيى هاشم حسن فرغل/ العقدية الإسلامية بين الفلسفة والعلم، أبو ظبى ط مكتبة المكتبة.
- الأساتذة: يوسف كرم، مراد وهبة، يوسف شلاله، المعجم الفلسفي، القاهرة، ط مكتبة يوليو.